الجزء الثالث

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا ، وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

المعنى الجملى

كان الكلام قبل هذا فى بيان سنة الله فى خلقه ، أن الحق لابد أن ينتصر على الباطل ، وأنه لابد أن يقيض له أعوانا يدافعون عنه ، ويكتب لهم الغلبة والفوز مهما كان للباطل من صولة ، وقد ضرب لذلك مثل جالوت جبّار الفلسطينيين الذى استولى على ملك بنى إسرائيل واستحوذ على خيرات بلادهم ، فقام أولو الرأى فيهم وطلبوا من نبيهم صموئيل أن يختار لهم ملكا يقوم بأمرهم ويعد لهم جيشاً يقاوم به

عدوهم فاختار لهم طالوت ملكا ، فجيش الجيوش وذهب بهم إلى ساحة القتال ، وكتب لهم الظفر على العدو بإذن الله ، وقتل داود ـ وكان فى عسكر طالوت ـ جالوت وانهزم العدو وولى الأدبار وكان الفوز للمؤمنين على الوثنيين الكافرين .

وما تمّ هذا إلا بفضل داود الذى آتاه الله الملك والنبوة وعلمه كل ماينفع من عتاد الحرب كالدروع والآلات الأخرى .

ثم ذكر بعد هذا أنه لولا فضل الله ورحمته وسابق حكمته بأن يدفع أهل الخير والإصلاح فى الأرض أهل الفساد والشرور والآثام فيها لاختل نظام العالم وفسد أمره .

و بعدئذ ذكر أن ذلك القصص الذى تلاه على رسوله قصص أمم قد خلت لم يكن له سابق علم بحالها من قبل ، فمعرفته إياها لم تكن إلا بوحى من لدن حكيم خبير ، وهذا دليل على أنه من المرسلين .

وهنا ذكر أن أولئك المرسلين قد ميز الله بعضهم على بعض ، فآتى بعضاً مزايا ومناقب ليست لغيره كما فصل ذلك فى الآية الكريمة ، وقد خص بالذكر من بقى لهم أتباع ، وذكر ما كان من أمر أتباعهم من بعدهم فى الاختلاف والاقتتال .

الإيضاح

(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) أى هؤلاء الرسل المشار إليهم بقوله : « وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » فضلنا بعضهم على بعض فى مراتب الكمال ، فخصصناه بمآثر جليلة خلا عنها غيره ، مع استوائهم جميعاً فى اختياره تعالى لهم للتبليغ عنه وهداية خلقه إلى ما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

وخلاصة هذا — أنهم كلهم رسل الله ، فهم جديرون أن يقتدى بهم و يهتدى بهديهم ، وإن امتاز بعضهم عن بعض بخصائص فى أنفسهم وفى شرائعهم وأممهم .

ثم بين هذا التفضيل فى بعض المفضلين فقال :

(منهم من كلم الله) أى منهم من فضله الله بأن كلمه من غير سفير وهو موسى عليه السلام كما قال تعالى فى سورة النساء « وكلم الله موسى تكليما » وفى سورة الأعراف « وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ » وفى الآية بعدها « قَالَ يَا مُوسَى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى » .

(ورفع بعضهم درجات) أى ومنهم من رفعه الله على غيره من الرسل بمراتب متباعدة فى الكمال والشرف ، والمراد به محمد صلى الله عليه وسلم كما رواه ابن جرير عن مجاهد ، ويؤيده السياق أيضا ، فإن الكلام فى بيان العبرة للأمم التى تتبع الرسل ، والتشنيع عليهم فى اختلافهم واقتتالهم ، مع أن دينهم واحد فى جوهره ، والموجود من هذه الأمم اليهود والنصارى والمسلمون ، فالمناسب تخصيص رسلهم بالذكر وقد ذكر موسى أولا وعيسى آخراً ومحمداً فى الوسط ، إشعاراً بأن شريعته وأمته وسط .

ومن هذه الدرجات ما هو خصوصية فى أخلاقه الشريفة كما يرشد إلى ذلك قوله فى سورة القلم « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » ومنها ما هو فى كتابه وشريعته كما يدل على ذلك قوله فى فضل القرآن « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ » وقوله : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ » .

ومنها ما هو فى أمته الذين اتبعوه وعضوا على دينه بالنواجذ كما قال : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » .

ولو لم يؤت من المعجزات إلا القرآن وحده لكفى به فضلا على سائر ما أوتى الأنبياء ، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات ، وقد روى البخارى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أعطى من الآيات

ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

وروى عنه أنه قال « فضلت على الأنبياء بست : أوتيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون » .

(وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) البينات هى ما يتبين به الحق من الآيات والدلائل كما قال : « وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ » وأيدناه أى قويناه ، وروح القدس هو روح الوحى الذى يؤيد الله به رسله كما قال للنبى صلى الله عليه وسلم « قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ » .

وخص عيسى بإيتاء البينات تقبيحا لإفراط اليهود فى تحقيره ، إذ أنكروا نبوته مع ما ظهر على يديه من البينات القاطعة الدالة على صدقه ، ولإفراط النصارى فى تعظيمه حيث أخرجوه من مرتبة الرسالة وزعموا أنه إله لا رسول مؤيد بآيات الله .

(ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ، ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) قوله : من بعدهم أى من بعد الرسل من الأمم المختلفة أى لو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا بأن جعلهم متفقين على اتباع الرسل الذين جاءوا بالحق من ربهم ، وقوله من بعد ماجاءتهم البينات أى من بعد ما جاءهم الرسل بالمعجزات الواضحة والآيات الظاهرة الدالة على الحق الموجبة لاتباعهم ، والزاجرة عن الإعراض عن سننهم ، وقوله ولكن اختلفوا أى أنه لم يشأ عدم اقتتالهم ، لأنهم اختلفوا اختلافا كبيرا ، فمنهم من آمن بما جاء به الرسل ، ومنهم من كفر بذلك كفرانا لا أمل معه فى هداية .

و إيضاح هذا أن الله جعل للإنسان عقلا يتصرف به فى أنواع شعوره ، وفكراً يجول به فى طرق معيشته ومعرفة ما يصلح له فى شئونه النفسية والبدنية ، وجعل

ارتقاءه فى إدراكه وأفكاره كسبيا ، فهو ينشأ ضعيف الإدراك ثم يقوى بالتربية والتعليم وتجارب السنين ، كما جعل هداية الدين له أمرا اختياريا يأخذ منها بقدر استعداده وفكره كما هو شأنه فى الاستفادة من منافع الكون ، وهذا هو منشأ الاختلاف .

ولو شاء الله أن يجعل الدين من إلهاماته العامة ، وشعوره الفطرى كشعور الحيوان وإلهامه لكان الناس فى هداية الدين سواء ، يسعدون به أجمعين ، فتمنعهم بيناته أن يختلفوا فيقتتلوا ، لكنه خلق الإنسان على غير ما عليه الحيوان ، وكان هذا سبب اختلاف أهل الأديان ، فمنهم من آمن إيمانا صحيحا فأخذ الدين على وجهه وفهمه حق فهمه ، ومنهم من حكم هواه فى تأويله ، فكان كافرا به فى الحقيقة ، وهذا هو منشأ التخاصم ، وسبب التنازع والقتال ، وقد اختلف اليهود فى دينهم فاقتتلوا ، والنصارى كانوا أشد منهم فى ذلك ، فتفرقوا طرائق قددا ، وكان أهل المذهب الواحد يتشعبون شعبا يقاتل بعضها بعضا .

وقد نهى الله المسلمين عن مثل هذا الخلاف ، وأمرهم بالاتحاد والوئام ، فامتثلوا أمره فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وزمنا قليلا بعده فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، ثم تفرقوا فى الدين مذاهب ، واقتتلوا فيه ، وما زالت الحال تتفاقم حتى صاروا أبعد الأمم عن الاتفاق والائتلاف .

وقد جرت سنة الله بأن أهل الدين الواحد يقاتل بعضهم بعضا باسم الدين ، ولحماية الدين ، من طغيان الملحدين ، ولله فى خلقه شئون .

(ولو شاء الله ما اقتتلوا) أى ولو شاء الله أن يعذر بعض المختلفين بعضا ، ويقتصر كل فريق على الانتصار لرأيه بالحجة ـ لما اقتتلوا على مايختلفون فيه ، لكنه أودع فى غرائزهم النضال عن مصلحتهم بكل ما قدروا عليه من قول أو فعل ، فمنهم من يقارع الحجة بالحجة ، ومنهم القوى الذى يقاوم بالسيف ، فكان الاختلاف فى الرأى والمصالح مع عدم العذر مؤديا إلى الاقتتال لا محالة .

(ولكن الله يفعل ما يريد) أى أن اختصاص الناس بهذه المزايا أثر من آثار

إرادته تعالى فلا مرد له ، فإن أراد الله التوفيق لبعض عباده آمن به وأطاعه ، وإن أراد الخذلان لبعض آخر كفر به وعصاه .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)

شرح المفردات

المراد باليوم هنا يوم الحساب ، لا بيع فيه أى لا فداء فيتدارك المقصر تقصيره ، ولا خلة أى لا صداقة ولا مودة بنافعة ، والمراد بالكافرين تاركو الزكاة ، والظالمون هم الذين وضعوا المال فى غير موضعه وصرفوه فى غير وجهه .

المعنى الجملى

كان الكلام قبل هذا فيما كان من الرسل ومن أقوامهم بعدهم من الاختلاف والاقتتال ـ وهنا عاد إلى الأمر بالإنفاق بأسلوب آخر غير ما تقدم ، فالأول كان خطابا بالترغيب لمن لطف وجدانه وشعوره ، وبلغ فى مراتب الكمال منازل الصديقين ، ولكن الأكثرين من الناس يفعل فى نفوسهم الترهيب أكثر مما يفعل فيهم الترغيب ، فهم لا ينفقون فى سبيل الله إلا خوفا من العقاب ، أو طمعا فى الثواب ، وقد يجول بخاطر بعض الضعفاء أن يركنوا إلى شفاعة تغنى عن العمل ، أو فدية تقى صاحبها عاقبة ما كان منه من الزلل ، أو خلة بها يسامح صاحب الكبيرة مما ألمّ به من الخطل ـ فمثل هؤلاء يخاطبون بنحو ما فى هذه الآية .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) الإنفاق هنا يشمل الإنفاق الواجب بالزكاة ، والإنفاق المستحب أيضا .

ذاك أنه إذا اضطرب حبل الأمن فى الأمة ، أو انتشر المرض فى أبنائها ، أو كثر الجهل فى أفرادها ، ولا سبيل لدرء هذا إلا ببذل المال ـ وجب على الأغنياء أن يبذلوه لدفع هذه المفاسد ، و إزالة هذه الطوارئ ، لحفظ المصالح العامة .

وفى قوله « مما رزقناكم » حث على الإنفاق ، و إشعار بأنه لا يطلب منهم إلا بعض ما جعلهم مستخلَفين فيه من رزقه ونعمه .

وقوله « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ... » إلى آخره أى من قبل أن يأتى يوم الحساب الذى لا يفدَى فيه مقصر بمال ، ولا تنفع فيه الصداقة ولا تجدى الشفاعة .

وخلاصة ذلك ـ أن الإنفاق فى سبيل البر هو الذى ينجيكم فى ذلك اليوم الذى لا ينجى فيه الأشحة الباخلين من عذاب الله فداء يفتدون به أنفسهم ، ولا خلة يحمل فيها الخليل شيئا من أوزار خليله ، أو يهبه شيئا من حسناته ، ولا شفاعة يؤثر بها الشفيع فيما أراده الله ، فيحولها عن مجازاة الكافر بالنعمة ، الباخل بالصدقة ، المستحق للمقت والعقوبة بما دنس به نفسه فى الدنيا ودساها به من المعاصى والآثام ، ويجعله يترك عقوبته مرضاة له .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » .

وفى الآية إيماء إلى أن أمور الآخرة لا تقاس على ما هو حاصل فى الدنيا ، فلا يظن امرؤ أنه ينجو فيها بفداء يفتدى به أو شفاعة تناله من النبيين والربانيين كما كانت فى الدنيا تناله من الأمراء والسلاطين ، و إن كان فى هـذه الحياة فاسقاً ظالماً فاسد الأخلاق منّاعا للخير معتديا أثيما .

(والكافرون هم الظالمون) أى والتاركون للزكاة هم الذين ظلموا أنفسهم ، إذ وضعوا المال فى غير موضعه ، وصرفوه فى غير وجهه ، وقد سماهم الله كافرين تغليظا وتهديداً كما قال فى آخر آية الحج « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » مكان

ومن لم يحج ، وإيذاناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار كقوله : « وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » .

ذاك أن العلة فى منع الزكاة ونحوها من النفقات الواجبة ، أن حب المال أعلى فى قلب المانع من حب الله تعالى ، وشأنه أعظم فى نفسه من حقوقه عز وجل ، والنفس تذعن دائماً لما هو أرجح لديها نفعاً ، وأعظم فى وجدانها وقعاً .

وظلم الباخل بفضل ماله على ملهوف يغيثه ، أو مضطر يكشف ضرورته ، أو على المصالح العامة التى تقى أمته مصارع السوء ، أو ترفع من قدرها ، أو تزيل العقبات من طريقها — من أقبح أنواع الظلم ، فلا يعذر صاحبه بوجه من الوجوه التى يتعلل بها سواه ممن ظلموا أنفسهم .

وإن حال المسلمين اليوم لتوجب الأسى والحزن ، فترى أغنياءهم يعرفون حاجة أمتهم إلى بذل المال فى إنشاء دور العلم لينشلوها من بحار الجهل التى هى غارقة فيها ، وإلى رفع مستوى أخلاقها التى وصلت إلى الدرك الأسفل من الانحطاط ، حتى عم الفقر والشقاء ، ثم هم بعد ذلك يبخلون بفضلة مما أعطاهم الله من رزقه ، لتكون بلسما تداوى به تلك النفوس المكلومة ، وعلاجا لهذه الأمراض التى انتابتها .

ومثل هؤلاء لا يستحقون أن ينسبوا إلى الإسلام ، ولا أن يكونوا من المسلمين ، إذ ليس فى أحدهم عرق ينبض أو يتألم لمصايب المسلمين ، فمن كان يرى أن ماله أفضل من دينه فى الوجدان والعمل ، وهواه أرجح من رضوان ربه ، فهو كافر بنعمته وإن سمى نفسه مؤمناً ، فما إيمانه إلا كإيمان من نزل فيهم « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ » .

وقد أنذر الله مثل هؤلاء بقوله: « هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللهُ الْغَنِىُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » .

اللَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

شرح المفردات

الله هو المعبود بحق، والعبادة استعباد الروح و إخضاعها لسلطة غيبية لاتحيط بها علما ،ولاتدرك كنهها وحقيقتها، وكل ما ألهه البشر من جماد ونبات وحيوان و إنسان فقد اعتقدوا فيه هذا السلطان الغيبي استقلالا أو تبعا لسواه ، والحى هو ذو الحياة ، والحياة هى مبدأ الشعور والإدراك والحركة والنمو ، وهى بهذا المعنى مما يتنزه عنها الله ، فالمراد بها بالنسبة إليه تعالى الوصف الذى يعقل معه الاتصاف بالعلم والإرادة والقدرة ، والقيوم القائم على خلقه بتدبير آجالهم وأعمالهم وأرزاقهم كما قال تعالى« أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » والأخذ الغلبة والاستيلاء ، والسنة النعاس ، وهو فتور يسبق النوم ، قال عدى بن الرقاع :

وسنان أقصده النعاس فرنقت　　فى عينه سنة وليس بنائم

والنوم حال تعرض للحيوان بها تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس والشعور، والكرسى هو العلم الإلهى ، وآده الشيء يئوده إذا أثقله ولحقه منه مشقة ، والعلى هو المتعالى عن الأشباه والأنداد ، والعظيم هو الكبير الذى لاشيء أعظم منه .

المعنى الجملى

أمرنا سبحانه قبل هذا بالإنفاق فى سبيله قبل أن يأتى اليوم الذى لاتنفع فيه شفاعة الشافعين، ولا يغنى مال يعطى فدية عن العاصين ، ولاتنفع صداقة لدى الرؤساء وذوى

الثراء كما كانت تجدى فى الدنيا نفعا ، وبها تحل كل مهمة ـ هنا انتقل إلى تقرير أصول الدين من توحيد الله وتنزيهه حتى يستشعر العبد عظيم سلطانه ووجوب الطاعة لأمره ، والإذعان لحكمه ، والوقوف عند حدوده ، وبذل المال فى سبيله ، وعدم الركون إلى شفاعة الشافعين ولا الفدية بمال ولا بنين .

الإيضاح

(الله لا إله إلا هو الحى القيوم) أى الإله الحق الذى يستحق أن يعبد هو الله الواحد الصمد ذو الملك والملكوت الحى الذى لايموت القائم بتدبير أمر عباده يكلؤهم ويحفظهم ويرزقهم .

(لاتأخذه سنة ولا نوم) أى لايعتريه نوم ولا مقدماته ، وإذا كان كذلك كان قائما بتدبير شئون عباده فى جميع الأوقات آناء الليل وأطراف النهار .

وقد جاء النظم الكريم على حسب الترتيب الطبيعى فى الوجود ، فنفى مايعرض أولا وهو السنة ، ثم مايتبعها وهو النوم ، وبعبارة أخرى ـ هو ترقّ فى نفى النقص عنه ، فإن من لا تغلبه السنة قد يغلبه النوم لأنه أقوى ، فذكر النوم بعد السنة ترقّ من نفى الأضعف إلى نفى الأقوى .

والخلاصة — أن هذه الجملة مؤكدة لما قبلها ، مقررة لمعنى الحياة والقيومية على أتم وجه ، إذ من تأخذه السنة والنوم يكون ضعيف الحياة ضعيف القيام بشئون نفسه ، وبشئون غيره .

(له ما فى السموات وما فى الأرض) فكل من فيهما وما فيهما ملكه وعبيده ، خاضعون لمشيئته ، وهو المصرف لشئونهم والحافظ لوجودهم .

وهذه الجملة تأكيد ثان لقيوميته واحتجاج بها على تفرده فى الألوهية ، لأنه تعالى خلقهما بما فيهما .

(من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) أى من ذا الذى يستطيع من عبيده

أن يغير ما مضت به سنته ، وقضت به حكمته ، وأوعدت به شريعته ، من تعذيب ذوى العقائد الباطلة، والأخلاق السافلة ، الذين أفسدوا فى الأرض وانحرفوا عن جادة الدين إلا إذا أذن له ربه ، ونحو هذا قوله : « يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ »

وهذا تمثيل لانفراده بالملك والسلطان فى ذلك اليوم ، وأن أحدا من عباده لا يجرؤ على الشفاعة أو التكلم بدون إذنه ـ و إذنه غير معروف لأحد من خلقه ـ وفى ذلك قطع لأمل الشافعين والذين يركنون إلى الشفاعة التى كان يقول بها المشركون وأهل الكتاب .

(يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى يعلم أمور الدنيا التى خلفوها ، وأمور الآخرة التى يستقبلونها ، وهذه الجملة مؤكدة لنفى الشفاعة ، إذ من كان عالما بكل شىء فعله العباد فى الماضى وما هو حاضر بين أيديهم وما يستقبلهم ، وكان ما يجازيهم به مبنيا على هذا العلم ، كانت الشفاعة على هـذا النحو المعروف ، مما يستحيل عليه تعالى ، لأنها لاتتحقق إلا بإعلام الشفيع المشفوع عنده من أمر المشفوع له وما يستحقه ما لم يكن يعلم .

وما ورد من أحاديث الشفاعة ، فهو محمول على الدعاء الذى يفعل الله تعالى عقبه ما سبق فى علمه الأزلى أنه سيفعله ، مع أنا نقطع بأن الشافع لايغير شيئا من علمه ، ولا يحدث تأثيرا فى إرادته ، وبذلك تظهر كرامة الله لعبده بما أوقع من الفعل عقب دعائه ، قاله شيخ الإسلام ابن تيمية .

(ولايحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) أى أن أحدا من خلقه لايحيط بما يعلمه الله إلا إذا شاء الله ذلك ، والشفاعة تتوقف على إذنه تعالى ، و إذنه لايعلم إلا بوحى منه ، و إنما يعرف إذنه تعالى بما حدده من الأحكام فى كتابه ، فمن بين أنه مستحق لعقابه ، فلا يجرؤ أحد أن يدعو له بالنجاة ، ومن بين أنه مستحق لرضوانه على هفوات ألمّ بها لم تحول وجهه عن الله تعالى إلى الباطل والفساد ولم تدسّ

روحه حتى تسترسل فى الخطايا ، فهو واصل إليه على ما وعد به فى كتابه وما تفضل به على عباده .

(وسع كرسيه السموات والأرض) أى أن علمه تعالى محيط بما يعملون مما عبر عنه بقوله : « يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » وبما لايعلمون من شئون سائر الكائنات ، ويرى جمع من المفسرين منهم القفّال والزمخشرى أن الكلام تصوير لعظمته وتمثيل لكبريائه ، ولا كرسى ولا قيام ولا قعود ، ذلك أنه تعالى خاطب عباده فى تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه فى ملوكهم وعظمائهم .

والخلاصة — أن الكرسى شىء يضبط السموات والأرض ، نسلم به بدون بحث فى تعيينه ، ولا كشف عن حقيقته ، ولا كلام فيه بالرأى دون نص عن المعصوم .

(ولا يئوده حفظهما) أى ولا يثقله حفظ هذه العوالم بما فيها ، ولا يشق عليه ذلك ، وإنما لم يذكر ما فيهما ، لأن حفظهما مستتبع لحفظه .

(وهو العلى العظيم) أى وهو المتعالى عن الأنداد والأشباه ، العظيم على كل شىء سواه ، فهو المنزه بعظمته عن الاحتياج إلى من يعلمه بحقيقة أحوالهم ، أو يستنزله عما يريد من مجازاتهم على أعمالهم .

والخلاصة — أن هذه الآية تملأ القلب مهابة من الله وجلاله وكماله ، حتى لا تدع موضعا للغرور بالشفعاء الذين يعظمهم المغرورون ويتكلون على شفاعتهم ، فأوقعهم ذلك فى ترك المبالاة بالدين ، فخويت القلوب من ذكر الله ، وخلت من خشيته ، جهلا منها بما يجب من معرفته ، وأفسدت فطرتهم الأهواء والجهالات ، فلا يجدون ما يلهون به إلا كلمة (الشفاعة) ومن اغتر بها فشيطانه هو الذى يوسوس له ، ويمده فى الغىّ .

فهذه النفوس لم تعرف عظمة الله ، ولم تستشعر بالحياء منه ، ولم تحترم دينها وشريعتها ، إذ آية ذلك بذل المال والروح فى إعلاء كلمته ، لا تعظيمه بالقول دون أن يصدق ذلك العمل .

وإنك لترى المسلمين يترنمون بهذه الآيات ، وقلما تحدث لأحد منهم ذكراً يصرفه عن الشفاعات ، ويرجو النجاة بعمل الصالحات وهو مؤمن كما وعد الله بذلك فى كتابه ، وقد حذوا حذو أهل الكتاب من قبلهم ، واتكلوا فى نجاتهم على شفاعة سلفهم ، وتركوا المبالاة بالدين .

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)

شرح المفردات

لا إكراه فى الدين أى لا إكراه فى دخول الدين ، وبان الشىء واستبان وضح وظهر ومنه المثل : تبين الصبح لذى عينين ، والرشد ـ بالضم والتحريك ـ والرشاد الهدى وكل خير ، وضده الغى ، والجهل كالغى إلا أن الأول فى الاعتقاد ، والثانى فى الأفعال ، ومن ثم قيل زوال الجهل بالعلم وزوال الغى بالرشد ، والطاغوت من الطغيان وهو مجاوزة الحد فى الشىء ، ويجوز تذكيره وتأنيثه وإفراده وجمعه على حسب المعنى كما قال تعالى : « أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوت » وقال : « يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ » والعروة من الدلو والكوز ونحوهما المقبض الذى يمسك به من يأخذهما ، والوثقى مؤنث الأوثق وهو الحبل الوثيق المحكم ، والانفصام الانكسار أو الانقطاع من قولهم فصمه فانفصم أى كسره أو قطعه ، والولى الناصر والمعين ، والظلمات هى الضلالات التى تعرض للإنسان

فى أطوار حياته كالكفر والشبهات التى تعرض دون الدين فتصد عن النظر فيه أو تحول دون فهمه ، والإذعان له كالبدع والأهواء التى تحمل على تأويله وصرفه عن وجهه ، والشهوات التى تشغل عنه .

المعنى الجملى

كان الكلام قبل هذا فى تقرير أصول الدين من توحيد الله وتنزيهه وانفراده بالملك والسلطان فى السموات والأرض ، وبيان أن علمه محيط بكل شىء وأنه العلى العظيم .

والكلام هنا فى بيان أن الاعتقاد بهذا أمر تهدى إليه الفطرة ، وترشد إليه المشاهدات الكونية ، فأماراته واضحة ، والنُّصُب عليه جلية لا لبس فيها ولا إبهام ، فمن هدى إليه فقد فاز بالسعادة ، ومن أعرض عنه خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

وسبب نزول الآية ما رواه ابن جرير من طريق عِكْرِمة عن ابن عباس : أن رجلا من الأنصار يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسلما ، فقال للنبى صلى الله عليه وسلم : ألا أستكرههما ؟ فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ، فأنزل الله الآية ، وفى بعض الروايات أنه حاول إكراههما ، فاختصموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فقال يا رسول الله : أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ، فنزلت فخلاهما .

الإيضاح

(لا إكراه فى الدين) أى لا إكراه فى الدخول فيه ، لأن الإيمان إذعان وخضوع ، ولا يكون ذلك بالإلزام والإكراه ، وإنما يكون بالحجة والبرهان .

وكفى بهذه الآية حجة على من زعم من أعداء الدين ، بل من أوليائه ، أن الإسلام ما قام إلا والسيف ناصره ، فكان يعرض على الناس ، فإن قبلوه نجوا ، وإن رفضوه حكم فيهم السيف حكمه .

والتاريخ شاهد صدق على كذب هذا الافتراء : فهل كان السيف يعمل عمله فى إكراه الناس على الإسلام حين كان النبى يصلى مستخفياً والمشركون يفتنون المسلمين بضروب من التعذيب ، ولا يجدون زاجراً حتى اضطر النبى وصحبه إلى الهجرة؟ أو كان ذلك الإكراه فى المدينة بعد أن اعتز الإسلام ؟ وقد نزلت هذه الآية فى مبدأ هذه العزة ، فإن غزوة بنى النضير كانت فى السنة الرابعة للهجرة ، اللهم لاهذا ولا ذاك.

هـذا وقد كان معهوداً عند بعض الملل ولا سيما النصارى إكراه الناس على الدخول فى دينهم .

ثم أكد عدم الإكراه بقوله :

(قد تبين الرشد من الغى) أى قد ظهر أن فى هـذا الدين الرشد والفلاح ، وأن ما خالفه من الملل الأخرى غىّ وضلال .

(فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) أى فمن يكفر بما تكون عبادته والإيمان به سبباً فى الطغيان والخروج عن الحق من عبادة مخلوق ، إنسانا كان أو شيطانا أو وثنا أو صنما ، أو تقليد رئيس ، أو طاعة هوى ، ويؤمن بالله فلا يعبد إلا إياه ، ولا يرجو شيئاً من أحد سواه ، ويعترف بأن له رسـلا أرسلهم للناس مبشرين ومنذرين بأوامره ونواهيه التى فيها مصلحة للناس كافة ـ فقد تحرى باعتقاده وعمله أن يكون ممسكا بأوثق عرا النجاة ، وأمتن وسائل الحق ، وإنما يكون ذلك بالاستقامة على الطريق القويم الذى لايضل سالكه فمثله مثل الممسك بعروة الحبل المحكم المأمون الانقطاع لدى حمل جسم كبير ثقيل .

(والله سميع عليم) أى والله سميع لأقوال من يدعى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، عليم بما يكنه قلبه مما يصدق هذا أو يكذبه ، فمن اعتقد أن جميع الأشياء مسيرة بقدرة الله ، لا تأثير فيها لأحد سواه ، فهو المؤمن حقًّا وله الجزاء الأوفى ، ومن انطوى قلبه على شىء من نزغات الوثنية ، ونسب ما جهل سره من عجائب الخلق إلى قوة

غير طبيعية يتقرب بها إلى الله زلفى ، فقد حق عليه العذاب ، وكان جزاؤه جزاء الذين يقولون آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين .

وهذه الجملة جاءت للترغيب والترهيب .

وقد جاء بمعنى الآية قوله : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟ » .

وقد جعل المسلمون قوله : (لا إكراه فى الدين) أسًّا من أسس الدين ، وركناً عظيما من أركان سياسته ، فلم يجيزوا إكراه أحد على الدخول فيه ، كما لم يجيزوا لأحد أن يكره أحداً على الخروج منه .

وإنما يتم ذلك إذا كانت لنا المنعة والقوة التى نحمى بها ديننا وأنفسنا ممن يحاول فتنتنا فيه أو الاعتداء علينا ، وقد أمرنا الله بأن ندعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن نجادل المخالفين بالتى هى أحسن مع حرية الدعوة وأمن الفتنة .

وإنما فرض علينا الجهاد ليكون سياجا ووقاية لصدّ من يقاوم هذه الدعوة ، ويمنع نشر هذا النور فى أرجاء المعمورة ، وكف شر الكافرين عن المؤمنين ، كيلا يزعزعوا ضعيفهم قبل أن يتمكن الإيمان من قلبه ، ويقهروا قويهم بفتنته عن دينه ، كما كانوا يفعلون ذلك فى مكة جهرا ، ومن ثم قال سبحانه : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ » أى حتى يكون الدين كله خالصا لله غير مزعزع ولا مضطرب ، ولن يكون كذلك إلا إذا كُفَّتِ الفتن عنه وقوى سلطانه حتى لا يجرؤ على أهله أحد .

والفتن تكفّ بأحد أمرين :

(١) بإظهار المعاندين الإسلام ولو باللسان ، وبذا لا يكونون من خصومنا ولا يناصبوننا العداء ، ولا يمنعون أحدا من الدعوة إليه .

(٢) بقبول الجزية وهى جزء من المال يؤخذ من أهل الكتاب جزاء حمايتنا لهم بعد أن يخضعوا لنا فنكفى شرهم .

(الله ولىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) أى أن المؤمن لا ولىّ له ولا سلطان لأحد على اعتقاده إلا الله تعالى ، فهو يهديه إلى استعمال ضروب الهدايات التى وهبها الله (الحواس والعقل والدين) على الوجه الصحيح ، وإذا عرضت له شبهة لاح له شعاع من نور الحق يطرد هذه الظلمة حتى يخلص منها كما قال « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » .

فنظر الحواس فى الأكوان و إدراكها مافيها من بديع الإتقان ينير هذه الحواس ، ونظر العقل فى المعقولات يزيده نورا على نور، والنظر فيما جاء به الدين من الآيات يتم له ما يصل به إلى أوج سعادته ومنتهى فوزه وفلاحه .

(والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) أى والكافرون لا سلطان على نفوسهم إلا لتلك المعبودات الباطلة التى تسوقهم إلى الطغيان فإن كانت من الأحياء الناطقة ورأت أن عابديها قد لاح لهم شعاع من نور الحق نبههم إلى فساد ما هم فيه — بادرت إلى إطفائه وصرفه عنهم بإلقاء حجب الشبهات ، و إن كانت من غير الأحياء فسدنة هيا كلها وزعماء حزبها لا يقصرون فى تمويق هذه الشبهات ، ببيان أن الواجب الاعتقاد بتلك السلطة و بما ينبغى لأربابها من التعظيم وهو لاشك عبادة و إن سموه توسلا أو استشفاعا أو غير ذلك من الأسماء .

(أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فإن ما يكون فى الآخرة ما هو إلا جزاء لما كان عليه الإنسان فى الدنيا ، ولا يليق بأهل الظلمات الذين لم يبق لنور الحق مكان فى نفوسهم إلا تلك الدار التى وقودها الناس والحجارة .

ونحن لانبحث عن حقيقتها ، و إن كنا نعتقد مما جاء فيها من نصوص الدين أنها دار شقاء وعذاب ، جزاء ما قدمته أيدى العاصين من سيء أعمالهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ

فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)

شرح المفردات

الاستفهام للتعجيب والإنكار ، وحاج جادل وقابل الحجة بالحجة ، فبهت أى صار مبهوتا دهشا وأخذه الحصر من سطوع نور الحجة فلم يجد جوابا ، الظالمين أى المعرضين عن قبول الهداية بالنظر فى الدلائل القاطعة التى توصل إلى معرفة الحق .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت فيما سلف أن الله ولىّ الذين آمنوا، وأن الطاغوت ولىّ الكافرين ضرب هنا مثلا يؤيد تلك القضية ويكون شاهدا على صدقها ودليلا على صحتها ، فبين أن ابرهيم كيف وفقه الله وتولاه بولايته إلى الحجج القيمة التى أزال بها تلك الشبهات التى عرضها عليه خصمه حتى فاز عليه وفلج بحجته ، وأن الذى حاجه كيف عمى عن نور الحق ، فانتقل من ظلمة من ظلمات الشكوك والأوهام إلى أخرى ، وتردّى فى مهاوى الهلاك بولاية الطاغوت له .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) أى ألم ينته إلى علمك الذى يبلغ مرتبة اليقين قصص ذلك الملك الذى تجبر وادعى الربوبية ، وعارض إبراهيم فى ربوبية ربه – ويقال إنه نمرود بن كنعان بن سام بن نوح عليه السلام .

(أن آتاه الله الملك) أى أن الذى أورثه الكبر والبطر ، وحمله على الإسراف فى الغرور والإعجاب بقدرته حتى حاج إبراهيم – هو إيتاء الله إياه الملك .

(إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت) هذا جواب من إبراهيم حين كسر

الأصنام التى تعبد من دون الله ، وسفه أحلام عابديها ، فسأله نمرود عن ربه الذى يدعو إلى عبادته (قال : ربى الذى يحيى ويميت) .

فأنكر الملك الطاغية هذا الجواب .

و (قال أنا أحيى وأميت) أى أنا أحيى من حكم عليه بالإعدام بالعفو عنه ، وأميت من شئت إماتته بالأمر بقتله .

وهذا الإنكار من ذلك الملك الجبار يدل على أنه لم يفهم قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، فإن الحياة فى جوابه بمعنى إنشاء الحياة فى جميع العوالم الحية من نبات وحيوان وغيرها ، وإزالة الحياة بالموت - وفى جواب نمرود بمعنى أنه يكون سبباً فى الإحياء والإماتة ، من أجل هذا أوضح جوابه بقوله :

(قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) أى أن ربى الذى يعطى الحياة ويسلبها بقدرته وإرادته ، هو الذى يطلع الشمس من المشرق ، فهو المكوّن لهذه الكائنات على ذلك النظام البديع ، والسنن الحكيمة التى نشاهدها ، فإن كنت تستطيع أن تفعل كما يفعل ، فغيّر لنا شيئاً من هذه النظم ، فالشمس تطلع من المشرق فحولها وائت بها من المغرب .

(فبهت الذى كفر) أى فدهش ولم يجد جوابا ، وكأنما ألقمه حجراً .

(والله لا يهدى القوم الظالمين) أى إن الله لا يهدى من أعرض عن قبول الهداية ، ولم ينظر فى الدلائل التى توصل إلى معرفة الحق ، ويستسلم للطاغوت ، ويترك ما أعطاه الله من الفهم ، اتباعا لهواه وشهواته التى تزين له ما هو فيه ، وهو حينئذ قد ظلم نفسه وضل ضلالا بعيداً .

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ؟

قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ، فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

شرح المفردات

القرية : الضيعة ، والمصر الجامع ، وقد أبهم الله القرية فلم يذكر مكانها ولا المارّ عليها ، بل اقتصر على موضع العبرة ، وما به تقوم الحجة ولم يعن بما فوق ذلك حتى لايشغل القارئ أو السامع به ، ومن ثم اختلف المفسرون فيها فمن قائل إنها بيت المقدس و إن المار عليها هو عزير بن شرخيا ، ومن قائل هى دير هرقل على شط دجلة والمار هو أرميا من سبط هرون عليه السلام ، وخاوية أى ساقطة من خوى البيت إذا سقط ، والعروش واحدها عرش وهو سقف البيت وكل ما هيئ ليستظل به ، والمراد منه أن العروش سقطت أولا ثم سقطت الحيطان عليها ، وأنّى بمعنى كيف ، والحياة هنا العمران ، والموت الخراب ، وأماته أى جعله فاقدا للحس والحركة والإدراك بدون أن تفارق الروح البدن بتاتاً مثل ما حدث لأهل الكهف ، والبعث الإرسال من بعثت الناقة إذا أطلقتها من مكانها ، وعبر بالبعث دون الإحياء إيذانا بأنه عاد كما كان أولا حيا عاقلا مستعدا للنظر والاستدلال ، وقد دلت تجارب الأطباء فى العصر الحديث على أن من الناس من يبقى حيا زمنا طويلا لكنه يكون فاقد الحس والشعور ، وهو المسمى لديهم بالسبات وهو النوم المستغرق ويستعمله أهل الرياضيات فى الهند ، فقد شوهد شاب قد نام نحو شهر ثم أصيب بدَخَل فى عقله ، وآخرون ناموا أكثر من ذلك ، ومتى ثبت هذا فالذى يحفظ الأجسام مثل هذه المدة قادر أن يحفظها مائة سنة ، وثلثمائة سنة ، فهذا من الممكنات لا من المستحيلات

وقد تواتر به النص ، فيجب التسليم به ، والتجارب التى عملت تقرب بيان إمكانه من أذهان الذين يعسر عليهم أن يميزوا بين ما هو مستبعد لعدم إلْفِه فى مجرى العادة ، وما هو محال لايقبل الثبوت لذاته ، ولم يتسنه أى لم يتغير ولم يفسد من قولهم تسنه الشىء مرت عليه السنون والأعوام ، وآية علامة دالة على قدرة الله ، وننشزها أى نرفعها من الأرض ونردها إلى أماكنها من الجسد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر محاجة إبراهيم لذلك الكافر و إلزامه الحجة ، بإثباته أن لهذا الكون إلهاً قادراً على كل شىء ، واحداً لا شريك له فى الملك والتدبير ، ذكر هنا مايدل على إثبات البعث والنشور ، ويرشد إلى هداية الله للمؤمنين ، و إخراجهم من ظلمات الشبه إلى نور اليقين ، ولا غرابة فى وقوع الشبهة للمؤمن ثم طلبه المخرج منها بالدليل والبرهان ، فيهديه الله بما له من الولاية والسلطان على نفسه ، ويخرجه من الحيرة التى تعرض له إلى الطمأنينة التى تثلج قلبه وتملؤه بردا ويقينا .

الإيضاح

(أو كالذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها) أى أو أرأيت مثل الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، أى ما رأيت مثله فتعجب منه ، لأن حاله بلغت من الغرابة حداً لا يرى لها مثل .

(قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها) أى قال : كيف يعمر الله هذه القرية بعد خرابها ؟ ومراده بذلك استبعاد عمرانها بالبناء والسكان بعد أن خربت وتفرق أهلها .

(فأماته الله مائة عام ثم بعثه) أى فجعله الله فاقد الحس والحركة دون أن تفارق الروح البدن ، ثم أعاده إلى ما كان عليه أولا .

(قال كم لبثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى

طعامك وشرابك لم يتسنه) أى قال له بعد مبعثه كم يوما لبثت يا عزير ، قال لبثت يوما أو بعض يوم بناء على ظنه وتخمينه ، فقال له : ما لبثت هذا المقدار ، بل لبثت مدة متطاولة ، ومع ذلك لم يلحق طعامك وشرابك تغير مما تجرى العادة بمثله حين مرور الزمان وتطاول الأعوام .

والقصد من السؤال إظهار عجزه عن الإحاطة بشئونه تعالى ، وليطلع أثناء ذلك على بدائع قدرته بإبقاء الغذاء الذى لم يتسارع إليه الفساد مع مضى الزمن الطويل ، وليعلمه أن إحياءه كان بعد مدى طويل ، وبذا يزول من نفسه الاستبعاد الذى خطر على باله أولا .

(وانظر إلى حمارك) كيف نخرت عظامه ، وتقطعت أوصاله وتمزقت ، ليستبين لك طول لبثك ، وتطمئن بذلك نفسك .

(ولنجعلك آية للناس) أى فعلنا ما فعلنا من إحيائك وإحياء حمارك ، وحفظ ما معك من الطعام والشراب ، لنزيل تعجبك ، ونريك آياتنا فى نفسك وطعامك وشرابك ولنجعلك آية للناس .

أما كونه آية له فواضح ، وأما كونه آية للناس فلأن علمهم بموته مائة عام ، ثم بحياته بعد ذلك يكون من أكبر الآيات التى يهتدى بها من يشاهدها ، إلى كمال قدرة الله ، وعظيم سلطانه .

وبعد أن أراه الآية التى تكون حجة على من رآها فى قوله : (فانظر إلى طعامك وشرابك) نبهه إلى الدليل الذى يحتج به على إمكان البعث فى كل مكان وزمان ، وهو سنته تعالى فى تكوين الحيوان وإنشاء لحمه وعظمه فقال :

(وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً) أى أن القادر على أن يكسو هـذه العظام لحماً ويمدها بالحياة ويجعلها أصلا لجسم حى ـ قادر على أن يعيد الخصب والعمران للقرية ، وكذلك القادر على الإحياء بعد لبث مائة سنة قادر على الإحياء بعد لبث الموتى آلاف السنين ، فبعض أفعاله تعالى يشبه بعضاً .

وخلاصة ذلك — أنه كما أطلعناك على بعض آياتنا الخاصة الدالة على قدرتنا على البعث ، نهديك إلى الآية الكبرى الدالة على كيفية التكوين ، وبمثل هذا يحتج القرآن فى مثل قوله : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » وفى قوله : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » وفى قوله : « فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا » .

(فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير) أى فلما ظهر له إحياء الميت عياناً قال : أعلم علما يقينيا مؤيدا بآيات الله فى نفسى وفى الآفاق ، أن الله على كل شىء من الأشياء التى من جملتها ما شاهدته ، قدير لايستعصى عليه أمر .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ؟ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

شرح المفردات

فصرهن أى ضمهن ، سعياً أى مسرعات طيرانا ومشيا ، وعزيز أى غالب على أمره ، حكيم أى لأنه جعل أمر الإعادة وفق حكمة التكوين .

المعنى الجملى

ذكر فى هذه الآية مثالا آخر يدل على إثبات البعث ، وفيه دلالة على ولاية الله للمؤمنين ، و إخراجهم من الظلمات إلى النور ، وكرر المثل لإثبات البعث ، ولم يذكر إلا مثالا واحداً لإثبات الربوبية ، لأن منكرى البعث أكثر من منكرى الألوهية .

الإيضاح

(و إذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى ؟) أى واذكر وقت قول إبراهيم لربه ، أرنى كيف يكون إحياء الموتى ؟ وما وقع حينئذ من عجيب صنعه تعالى لتقف على هدايته تعالى للمؤمنين وولايته لهم .

وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مع أنه المقصود بالذات لأمرين :

(١) أن إيجاب ذكر الوقت يستلزم ذكر ما وقع فيه .

(٢) أن ذكر الوقت يشتمل على ما فيه بالتفصيل ، فإذا استحضر كان كل ما فيه حاضراً لايشذ عنه شيء .

وصرح بذكر إبراهيم دون الذى مرّ على القرية ، لأن فى سؤاله من الأدب مع الله والثناء عليه ما ليس فى سؤال ذاك ، فالصورة فى الأول صورة الإقرار مع طلب الزيادة فى العلم ، والصورة فى الثانى صورة الإنكار .

و بدأ سؤاله بكلمة (رب) المفيدة لعنايته تعالى بعبيده ، وتربيته لعقولهم وأرواحهم استعطافا وثناء على الله أمام الدعاء .

وخلاصة المعنى — يا رب أرنى بعينى كيفية إحيائك للموتى .

(قال أولم تؤمن قال بلى) أى قال : ألم تعلم ذلك وتؤمن بأنى قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألنى إراءته ؟ قال بلى علمت ذلك وصدقت بالخبَر ، ولكن تاقت نفسى للخُبْر والوقوف على كيفية هذا السر ليطمئن قلبى بالعيان بعد خبر الوحى.

وفى قوله تعالى لإبراهيم : « أَوَلَمْ تُؤْمِنْ » وهو العليم بإيمانه ويقينه — تنبيه و إرشاد إلى ما ينبغى أن يقف عنده الإنسان ولا يعدوه ، فإن الإيمان بهذا السر الإلهى والتسليم فيه لخبر الوحى ، هو غاية ما يطلب من البشر ، ولو كان وراء ذلك سبيل آخر لبينه الله تعالى .

وفى إرشاد ابراهيم خليله تأديب لعامة المؤمنين ، ومنع لهم عن التذكر فى كيفية الخلق والتكوين ، فإن هذا مما استأثر الله تعالى بعلمه .

وليس فى سؤال ابراهيم ما يشعر بالشك ، فالإنسان قد جبل على طلب المزيد فى العلم والرغبة فى الوقوف على أسرار الخليقة ، وأكمل الناس علما أشدهم رغبة فى طلب الوقوف على المجهولات .

فطلب ابراهيم رؤية كيفية إحياء الموتى طلب للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه من معرفة خفايا أسرار الربوبية ، لا طلب للطمأنينة بالبعث إذ قد عرفه بالوحى والدليل .

وإنا الآن لنؤمن بأمور كثيرة إيمانا يقينيا ولا نعرف كيفيتها ، ونود لو نعرفها ، فهذا الأثير (التلغراف اللاسلكى) ينقل أخبار العالم فى لحظة ، ولا نعرف كيفية ذلك ، بل أكثر من ذلك نقل الصور بالتلغراف من الأقطار النائية ، والقارات البعيدة ، ومثله أصوات المذياع (الراديو) التى تنشر فى جميع أقطار العالم بكل اللغات ، وتسمع فى أرجاء المعمورة ، ولا يعرف كثير من الناس كيف تصل إليهم .

(قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم) أى أن إبراهيم بعد أن طلب من ربه أن يطلعه على كيفية إحياء الموتى ـ أمره ربه أن يأخذ أربعة من الطير ، فيقطعهن أجزاء ، ثم يفرقها على عدة جبال بحضرته وأرضه ، ثم يدعوها فتجيبه مسرعة ـ والطير أشد الحيوان نفورا من الإنسان غالبا ـ وقد فعل إبراهيم ذلك .

قال المرحوم النطاسى عبد العزيز باشا إسماعيل فى رسالته « الإسلام والطب الحديث » أثناء كلامه فى المعجزات التى وقعت على أيدى الأنبياء ، ليتجلى لك ما ربما غاب عن فكرك ، وند عن بالك ، وتفهم ذلك حق الفهم قال :

المعجزات كلها من صنع الله مباشرة ، ومعناها سنة جديدة ، بخلاف ما نراه يوميا من عظة وعظمة كالولادة ونمو الحيوان والنبات فإنه مع إعجازه يأتى مطابقا لقواعد ونظم وضعها الله لا تتغير ، وأظهر مثل للنواميس الطبيعية حركة الشمس ، فإن ذلك

مع عظمته لا يحدث صدمة لتعوّدنا إياه ، ولكن إن أتى الله بالشمس من المغرب بدل المشرق كان هذا معجزة بالنسبة للإنسان ، مع أن الحركتين من صنع الله ولا فرق بينهما .

ولا تحدث المعجزات إلا على أيدى الأنبياء ، لأن صدمتها إن كانت شديدة على الحاضرين ، فهى أشد على من يكون واسطة فيها ، ولذلك اختار الله الأنبياء واصطفاهم .

وصفوة القول ـ أن أساس المعجزة وعظمتها ليس فى نتائجها وغرابتها ، فالدهشة من سماع الأبكم يتكلم ربما كانت أقل من سماع الراديو لأول وهلة ، ولكن أهمية المعجزة فى طريق صنعها دون السنن الاعتيادية ، وهى لذلك لا تتكرر أبدا إلا بإذن الله ، لأن الإنسان لا يعرف قاعدتها ، ولا يدرك طريق صنعها ، أما الاختراع فإنه اكتشاف لناموس إلهى طبيعى ، ولذلك هو يتكرر فى الظروف نفسها على يد كل إنسان ـ هذا كلامه باختصار .

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ

عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)

شرح المفردات

سبيل الله ما يوصل إلى مرضاته تعالى ، الحبة واحدة الحب وهو مايزرع ليقتات به ، المنّ أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن إليه ويظهر به تفضله عليه ، والأذى أن يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه كأن يقول له : إنى قد أعطيتك فما شكرت ، قول معروف أى كلام حسن وردّ جميل على السائل كأن يقول له : رزقك الله ، أو عد إلى مرة أخرى ، أو نحو ذلك ، ومغفرة أى ستر لما وقع منه من الإلحاف فى السؤال وغيره مما يثقل على النفوس احتماله ، وخير له أى أنفع له وأكثر فائدة ، رئاء الناس أى مراءاة لهم لأجل أن يروه فيحمدوه ، ولا يقصد ابتغاء رضوان الله بتحرى ما حث عليه من رحمة عباده الضعفاء والمعوزين وترقية شأن الأمة بالقيام بما يصلح شئونها ، فمثله أى صفته ، وصفوان أى حجر أملس ، والوابل المطر الشديد ، والصلد الأملس الذى ليس عليه شىء من الغبار ، ويقال فلان لا يقدر على درهم أى لا يجده ولا يملكه .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أمر البعث وقرره بالأدلة التى أراها للذى مر على قرية ، ولإبراهيم صلوات الله عليه ، وذكر أن هؤلاء المبعوثين يعودون إلى دار يوفون فيها أجورهم بغير حساب ، فى يوم لا تنفع فيه فدية ولا شفاعة بل تنفعهم أعمالهم التى أهمها الإنفاق فى سبيل الله — ذكر هنا فضل الإنفاق وأن الحسنة قد يضاعفها الله إلى سبعمائة ثم ضرب مثل السنبلة لذلك ، ثم ذكر أن المنّ والأذى يبطل الصدقة كما يبطلها الرياء ، وضرب لهذا مثل الصفوان .

الإيضاح

(مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) أى مثل الذين ينفقون المال يبتغون به رضا الله وحسن مثوبته كمن يزرع حبة فى أرض مغلة فتنبت سبع سنابل أى تخرج ساقا تتشعب منه سبع شعب فى كل سنبلة منها مائة حبة كما يرى فى كثير من الحب كالذرة والدخن .

وقد عنى بتطبيق هذا المثل علميا بعض أعضاء الجمعية الزراعية فى مزارع القمح التى لها فى التفتيش النموذجي وفى غيره ، فهدتهم التجارب إلى أن الحبة الواحدة لا تنبت سنبلة واحدة بل أكثر ، وقد وصلت أحياناً إلى أربعين ، وأحياناً إلى ست وخمسين ، وأحياناً إلى سبعين ، كما دلتهم أيضا على أن السنبلة الواحدة تغل أحياناً ستين حبة أو أكثر ، وقد عثر فى عام (١٩٤٢ م) أحد مفتشى الجمعية على سنبلة أنبتت سبعا ومائة حبة وعرض نتيجة بحثه على الإخصائيين من رجال الجمعية وغيرهم فى حفل جامع ، ورأوا تلك السنبلة وعدوها عداً ، فاتفقت كلمتهم على صدق ما عدّ ورأى ، وشكروه على جهوده الموفقة ـ والزمان كفيل بتأييد قضايا الكتاب الكريم مهما طال عليها الأمد ، وكلما تقدم العلم ظهر صدق ما أخبر به .

وخلاصة ذلك — أن المنفق فى إرضاء ربه وإعلاء دينه كمثل أبرك بذر فى أخصب أرض ، فنما نمواً حسناً فجاءت غلته سبعمائة ضعف .

(والله يضاعف لمن يشاء) فيزيده زيادة لا حصر لها .

أخرج ابن ماجه عن على وأبى الدرداء كلهم يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أرسل بنفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته ، فله بكل درهم سبعمائة درهم ، ومن غزا بنفسه فى سبيل الله وأنفق فى وجهه ذلك ، فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة درهم » ثم تلا هذه الآية .

وعن معاذ بن جبل أن الغزاة المنفقين قد خبأ الله تعالى لهم من خزائن رحمته ما ينقطع عنه علم العباد .

(والله واسع عليم) أى أنه تعالى لاينحصر فضله ، ولا يحدد عطاؤه ، وهو عليم بمن يستحق هذه المضاعفة كالمنفقين فى إعلاء شأن الحق ، وتربية الأمم على آداب الدين وفضائله التى تسوقهم إلى سعادة المعاش والمعاد ، حتى إذا ما ظهرت آثار ذلك فى قوة ملتهم وسعادة أمتهم جنوا من ذلك أجل الفوائد وعاد ذلك عليهم بالخير الوفير.

ولنعتبر بما نراه فى الأمم العزيزة الجانب التى ينفق أفرادها فى إعلاء شأنها بنشر العلوم والمعارف وتأليف الجماعات الخيرية التى تقوم بها المصالح العامة ، ولنوازن بين هؤلاء وبين كبراء الأمم التى ضعفت وذلت بإهمال الإنفاق فى المصالح العامة ، نر صعاليك الأولين ذوى عزة ومنعة لا يجاريهم فيها ثراة الآخرين .

هذا وإن الناس بمقتضى الفطرة يقتدى بعضهم ببعض ، فمن بذل شيئا فى سبيل المصلحة العامة كان قدوة لمن يبذل بعده ، فالناس يتأسى بعضهم ببعض من حيث لايشعرون .

والفضل الأكبر للسابقين الأولين فى عمل الخير ، فهم الذين يضعون الأسس لعمل الخير ، فهم الفائزون برضوان الله ، ولهم أجرهم وأجر من اقتدى بهم . أخرج الترمذى وأبو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من سنّ فى الإسلام سنة حسنة فعُمِل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

ثم بين ثواب الإنفاق فى الآخرة بعد بيان منافعه فى الدنيا فقال :

(الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى إن الذين يبذلون أموالهم يبتغون بذلك مرضاة ربهم ، ولايلحقون ذلك بالمن على من أحسنوا إليهم ولا بإيذائهم ، لهم عند ربهم ثواب لايقدر قدره ، ولا خوف عليهم حين يخاف الناس وتفزعهم الأهوال ، ولا هم يحزنون حين يحزن الباخلون المسكون عن الإنفاق فى سبيل الله ، إذ هم أهل السكينة والاطمئنان والسرور الدائم .

والحكمة فى تعليق هذا الثواب على ترك المن والأذى ، أن الإنفاق فى سبيل الله يراد به وجه الله وطلب رضاه ، فلا وجه لمنّ المنفق على من أنفق عليه ، لأنه لايد له قِبَله ، ولا صنيعة له عنده ، تستحق — إن لم يكافئه عليها — المن والأذى فعلى الله مثوبته دون من أنفق عليه .

(قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) أى كلام حسن ورد جميل على السائل ، وستر لما وقع منه من الإلحاف فى السؤال وغيره أنفع لكم وأكثر فائدة من صدقة فيها الأذى ، لأنه وإن خيب رجاءه فقد أفرح قلبه وهون عليه ذل السؤال ، وهذا القول تارة يتوجه إلى السائل إن كانت الصدقة عليه ، وتارة أخرى يتوجه إلى المصلحة العامة ، كما إذا احتيج لجمع المال لدفع عدو مهاجم أو بناء مستشفى أو مدرسة أو نحو ذلك من أعمال الخير والبر ولم يكن لدى المرء مال ، فعليه أن يساعد بالقول المعروف الذى يحث العاملين على العمل ، وينشطهم إليه ، ويبعث عزيمة الباذلين على الزيادة فى البذل ، أما الصدقة التى يتبعها أذى فهى مشوبة بضرر ما يتبعها من الإيذاء ، ومن آذى فقد بغض نفسه إلى الناس بظهوره فى مظهر البغض لهم ، والسلم والولاء خير من العداوة والبغضاء .

ومن الخير للأمة أن يظهر أفرادها فى مظهر المتعاونين كما قال : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى » وذلك مما يعزز مقامها ، ويحفظ كرامتها ، ويجعلها مهيبة فى أعين الناس أجمعين .

وخلاصة المعنى — أن مقابلة المحتاج بكلام يسرّه وهيئة ترضيه خير له من الصدقة مع الإيذاء بسوء القول أو سوء المقابلة ، ولا فارق بين أن يكون المحتاج فردا أو جماعة ، فإن مساعدة الأمة ببعض المال مع سوء القول فى العمل الذى ساعدها عليه ، وإظهار استهجانه ، وتشكيك الناس فى فائدته ، لا توازى إحسان القول فى ذلك العمل الذى تطلب المساعدة له ، والإغضاء عن التقصير الذى ربما يقع من

العاملين فيه ، فكونك مع الأمة بقلبك ولسانك أجدى لها من شىء من المال تعطيه مع مقالة السوء وفعل الأذى .

وقد قررت هذه الآية مبدأ عامّا فى الشريعة وهو « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » فقد دلت على أن الخير لا يكون طريقاً إلى الشر ، وعلى أن الأعمال الصالحة يجب أن تكون خالية من الشوائب التى تفسدها وتذهب بفائدتها كلها أو بعضها ، وعلى أن من عجز عن نوع من أنواع البر فعليه أن يجتهد فى إحسان عمل آخر يؤدى إلى مثل غايته ، فمن شق عليه أن يتصدق ولا يمن ولا يؤذى ، فعليه أن يجبر قلب الفقير بقول المعروف .

(والله غنىّ حليم) أى والله غنى عن صدقة عباده ، فلا يأمرهم ببذل المال لحاجة إليه ، بل ليطهرهم ويزكيهم ويؤلف بين قلوبهم ويصلح شئونهم الاجتماعية ، ليكونوا أعزاء ، بعضهم لبعض ناصر ومعين .

فهو غنى عن صدقة يتبعها منّ أو أذى لأنه لا يقبل إلا الطيبات ، حليم لا يعجل بعقوبة من يمنّ أو يؤذى .

وفى هذه الجملة سلوة للفقراء ، وتعليق لقلوبهم بحبل الرجاء بالله الغنى الحليم ، وتهديد للأغنياء وإنذار لهم بألا يغتروا بحلم الله وإمهاله إياهم ، وعدم تعجيل العقوبة على كفرهم بنعمته تعالى إذ من وهبهم المال فإنه يوشك أن يسلبه منهم .

وبعد أن أبان سبحانه فيما سلف أن ترك المنّ والأذى شرط لحصول الأجر والثواب على الإنفاق فى سبيله ـ أقبل يخاطب عباده المؤمنين وينهاهم نهياً لا هوادة فيه عن إبطال صدقاتهم بالمنّ والأذى فقال :

(يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) أى أن المنّ والأذى هادم للفائدة المقصودة من الصدقة ومبطل لها ، وهو تخفيف بؤس المحتاجين وكشف أذى الفقر عنهم إذا كانت الصدقة للأفراد ، وتنشيط القائمين بخدمة الأمة ومساعدتها

إذا كانت الصدقة فى مصلحة عامة ـ إذ أن كل عمل لايؤدى إلى الغاية منه فقد حبط و بطل كأن لم يكن ، فما بالك إذا أتبع بضد الغاية ونقيضها ؟ .

ونحو ذلك ما يقال : إن صلاة المرائى باطلة ، على معنى أن الغرض منها وهو توجه القلب إلى الله واستشعار سلطانه والإذعان لعظمته والشكر لإحسانه لم يحصل ، لأن قلب المرائى إنما يتوجه إلى من يرائيه لا إلى ذى العظمة والجبروت والملك والملكوت .

وفى ذلك مبالغة أيما مبالغة فى التنفير عن هاتين الرذيلتين اللتين قد أولع الناس بهما ، فالنفوس مغرمة بذكر ما يصدر منها من الإحسان تمدحا وتفاخراً ، وذلك طريق إلى المنّ والإيذاء ، ولا سيما إذا آنس المتصدق تقصيراً فى شكر الناس له على صدقته ، أو احتقاراً لها ، فهو حينئذ لايكاد يملك نفسه عن المنّ والأذى .

(كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) أى لا تبطلوا صدقاتكم بإحدى هاتين الرذيلتين فتكونوا مشبهين من ينفق ماله مرائيا الناس أى لأجل أن يروه فيحمدوه ، لا لابتغاء مرضاة الله بتحرى ما حث عليه من رحمة عباده الضعفاء والمعوزين ، وترقية شأن الأمة بما يصلح شئونها ، وهو لايؤمن بالله واليوم الآخر حتى يرجو ثوابا أو يخشى عقابا .

والخلاصة — أن كلا من المرائى وذى المنّ والأذى أتى بعمل غير مقبول ولا صحيح ، بل هو باطل ومردود عليه .

(فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا) أى أن صفة عمل المنافق المرائى كصفة تراب على حجر أملس نزل عليه ماء مطر شديد ، فأزاله وترك الحجر صلدا نقيا لا تراب عليه .

والوجه المشترك بينهما ، أن الناس يرون أن لهؤلاء المرائين أعمالا كما يرى التراب على الصفوان ، فإذا جاء يوم القيامة وصاروا إلى الله اضمحل ذلك كله وذهب ، لأنه لم يكن لله ، كما يذهب الوابل من المطر ما كان على الصفوان ، فيتركه أملس لاشىء عليه

(لايقدرون على شىء مما كسبوا) أى أنهم لاينتفعون بما فعلوا رئاء ولا يجدون له ثمرة لا فى الدنيا ولا فى الأخرى ، أما فى الدنيا فلأن المنان المؤذى بغيض إلى الناس ، كالبخيل الممسك ، والمرائى لا يخفى على الناس فعله .

ثوب الرياء يشف عما تحته فإذا اكتسيت به فإنك عار

وأما فى الآخرة فلأن المنّ والأذى كالرياء مناف للإخلاص ، ولا أجر عند الله إلا للمخلصين فى أعمالهم الذين يتحرون تزكية نفوسهم وإصلاح أحوالهم .

(والله لايهدى القوم الكافرين) إلى ما فيه خيرهم ورشادهم ، فإن الإيمان هو الذى يهدى قلب صاحبه إلى الإخلاص ووضع النفقات فى مواضعها ، والاحتراس من الإتيان بما يذهب فائدتها .

وفى هذا تعريض بأن كلا من الرياء والمنّ والأذى من صفات الكافرين التى ينبغى للمؤمنين أن يتجنبوها .

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

شرح المفردات

ابتغاء مرضاة الله أى طلباً لرضوانه ، وتثبيتاً من أنفسهم أى لتمكين أنفسهم فى مراتب الإيمان والإحسان باطمئنانها عند بذلها بحيث لاينازعها فيه زلزال البخل

ولا اضطراب الحرص ، والجنة البستان ، والربوة المكان المرتفع من الأرض ، وأشجار الربى أحسن منظراً وأزكى ثمراً للطافة هوائها وفعل الشمس فيها ، وآتت أكلها أى أعطت صاحبها أكلها ، والأُكل كل مايؤكل والمراد هنا الثمر ، وضعف الشيء مثله ، والطلّ المطر الخفيف ، والإعصار ريح عاصفة تستدير فى الأرض ثم تنعكس منها إلى السماء حاملة الغبار فتكون كهيئة العمود ، والنار أى السموم الشديد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مثل الذين ينفقون أموالهم ثم يتبعون ذلك بالمنّ والأذى ، ومثل الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، قفى على ذلك بذكر مثل الذين ينفقون أموالهم طلباً لرضا ربهم وتزكية لأنفسهم .

الإيضاح

(ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطلّ) أى مثل المنفقين أموالهم ابتغاء رضوانه تعالى ، وتمكيناً لأنفسهم فى مراتب الإيمان والإحسان باطمئنانها حين البذل حتى يكون ذلك سجية لها ، كمثل جنة جيدة التربة ملتفة الشجر عظيمة الخصب تنبت كثيرا من الغلات ، نزل عليها مطر كثير فكان ثمرها مثلى ما كانت تغل ، وإن لم يصبها الوابل فطلّ ومطر خفيف يكفيها لجودة تربتها وكرم منبتها وحسن موقعها ، وهكذا كثير البر كثير الجود إن أصابه خير كثير أغدق ووسع فى الإنفاق ، وإن أصابه خير قليل أنفق بقدره ، فخيره دائم ، وبره لا ينقطع .

وإنما قال من أنفسهم أى بعض أنفسهم ، ولم يقل لأنفسهم ، لأن إنفاق المال وجه من وجوه التثبيت والطمأنينة ، وبذل الروح وجه آخر ، وكماله ببذل الروح

والمال معا كما جاء فى قوله سبحانه فى سورة الحجرات « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .

وقد هدانا الله بهذا إلى أن نقصد بأعمالنا طلب رضاه وتزكية نفوسنا وتطهيرها من الشوائب التى تعوقها عن الكمال كالبخل والمبالغة فى حب المال ، فإن نحن فعلنا ذلك جوزينا خير الجزاء .

(والله بما تعملون بصير) فهو يجازى كلا من المخلص والمرائى بما هو أعلم به ، وفى ذلك تحذير من الرياء الذى يظن صاحبه أنه يغش الناس بإظهاره خلاف مايضمر . فعليك أيها المنفق أن تخلص لربك الذى لايخفى عليه ما تنطوى عليه سريرتك ، ثم ضرب مثلا لمن ينفق ماله ويتبعه بالمن والأذى فقال :

(أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت) أى هل يود الإنسان أن تكون له جنة معظم أشجارها الكرم والنخل ـ وهما أجل الأشجار وأكثرها نفعا ـ وحاوية لأنواع أخرى من الثمرات ، تجرى فيها الأنهار فتسقيها ماء غدقا ، علق بها آماله ، ورجا أن ينتفع بها عياله ، وقد أصابه الكبر وأقعده عن الكسب وله ذرية ضعفاء لايستطيعون أن يقوموا بشأنه وشأنهم ، ولا مورد له غير هذه الجنة .

وبينا هو على تلك الحال إذا بجنته قد أصابها إعصار فأحرقها بما فيه من سموم النار وهو أحوج ما يكون إليها ، وبقى هو وأولاده حيارى لايدرون ما ذا هم فاعلون ؟

وهكذا حال من يفعل الخير ويبذل المال ويحبط عمله بالرياء أو بالمنّ والأذى ، فإنه سيأتى يوم القيامة وهو أشد ما يكون حاجة إلى ثواب ما بذل ، لكنه يجد إعصار الرياء والمنّ والأذى أبطل ما فعل من الخير وجعله هباء منثوراً فأصبح يقلب كفيه نادما ، ولات ساعة مندم .

وقد جرت سنة القرآن أن يذكر الكرم بثمره ، والنخل بشجره ، لأن كل شيء فى النخل نافع للناس فى شئون معايشهم ، سواء فى ذلك ورقه وجذوعه وأليافه وعثاكيله ، فمنه يتخذون القفف والزنابيل والحبال والعروش والسقوف وغيرها .

والمراد بقوله (له فيها من كل الثمرات) مع كون الجنة من نخيل وعنب ـ المنافع أى هو متمتع بجميع فوائدها .

(كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) أى مثل هذا البيان بضرب الأمثال التى بلغت الغاية فى الوضوح ـ يبين الله لكم دلائل شريعته وأسرارها وفوائدها وغاياتها ، لتتفكروا فيها وتعتبروا بما اشتملت عليه من العبر ، فتضعوا نفقاتكم فى مواضعها ، وتقصدوا بها أن تكون خالصة لوجهه تعالى بدون رياء ولا أذى .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)

شرح المفردات

الطيب هو الجيد المستطاب ، وضده الخبيث المستكره ، ولا تيمموا أى لا تقصدوا ، وتغمضوا أى تتساهلوا وتتسامحوا من قولهم أغمض فلان عن بعض حقه إذا غض بصره ، ويقال للبائع أغمِضْ أى لا تستقص كأنك لا تبصر ، وحميد أى مستحق للحمد على نعمه العظام .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه ما يجب أن يتصف به المنفق عند البذل من الإخلاص لله وقصد تزكية النفس والبعد عن الرياء ، وما يجب أن يتحلى به بعد البذل من البعد

عن المنّ والأذى على أبلغ وجه وآكده ، وفيه الإرشاد إلى ما يختص بالباذل وبطرق البذل .

أشار هنا إلى ما ينبغى أن يُعْنَى بشأنه فى المال المبذول ، ليتم الإرشاد والنصح فى وجوه البذل والنفقة فى سبيل الله .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض) أى أنفقوا من جياد أموالكم المكسوبة من النقد وسلع التجارة والماشية ومما أخرجنا من الأرض من الحبوب والثمار وغيرها قال تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » .

(ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) أى ولا تقصدوا الخبيث الردىء من أموالكم فتخصوه بالإنفاق منه .

وقد روى فى سبب نزول الآية أن بعض المسلمين كانوا يأتون بصدقتهم من حشف التمر (أى رديئه) .

وروى من وجه آخر أن الرجل كان يعمد إلى التمر فيصرمه ، ثم يعزل الجيد ناحية ، فإذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الردىء . وكما نهينا عن تعمد تخصيص الصدقة بالخبيث ، نهينا عن تكليف المتصدق بدفع الجيد من ماله فحسب ، فقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن « أعلِمْهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وتردّ على فقرائهم ، وإياك وكرائم أموالهم » فالواجب أخذ الوسط .

(ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) أى كيف تقصدون الخبيث وتتصدقون به وحده ولستم ترضون مثله لأنفسكم إلا أن تتساهلوا فيه تساهل من أغمض عينيه عنه فلم ير العيب فيه ، ولن يرضى ذلك أحد لنفسه إلا وهو يرى أنه مغبون مغموص الحق ، ألا ترى أن الردىء لايقبل هدية إلا بإغماض فيه وتساهل مع المهدى ، لأن

إهداءه يشعر بقلة الاحترام لمن أهدى إليه ، والذى يقبله مع الإغماض إنما يقبله لحاجته إليه ، أو لخوف الحق ، والله لا يحتاج فيغمض .

(واعلموا أن الله غنى حميد) أى أن الله غنى عن إنفاقكم ، وإنما يأمركم به لمنفعتكم ، فلا تتقربوا إليه بما لا يقبله لرداءته ، وهو المستحق للحمد على جلائل نعمائه ومن الحمد اللائق بجلاله تحرّى إنفاق الطيب مما أنعم به .

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ (٢٦٩)

شرح المفردات

يعدكم أى يخوّفكم ، والفقر سوء الحال وضيق ذات اليد ، ويأمركم أى يغريكم ، والمراد بالفحشاء هنا البخل ، والمغفرة الصفح عن الذنب ، والفضل الرزق والخلف ، والحكمة العلم النافع الذى يكون له الأثر فى النفس ، فيوجه الإرادة إلى العمل بما تهوى مما يوصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

المعنى الجملى

بعد أن أمرنا سبحانه بإنفاق الطيب من أموالنا ، ونهانا عن تيمم الخبيث منها وإعطائه صدقة ، أراد أن يبين أسباب هذا القصد الذى يفعله المتصدق ، وركونه إلى الردىء دون الجيد ، هى أن الشيطان يقول له : لا تنفق الجيد من أموالك حتى لا تكون عاقبة ذلك الفقر .

الإيضاح

(الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) أى أن الشيطان يخوف المتصدقين الفقر ويغريهم بالبخل ، ويخيل إليهم أن الإنفاق يذهب بالمال ، ولابد من إمساكه والحرص عليه استعدادا لحاجات الزمان ، وسمى ذلك التخويف وعداً [والوعد هو الإخبار بما سيكون من جهة المخبر ، والشيطان لم يضف مجىء الفقر إليه] مبالغة فى الإخبار بتحقق وقوعه ، وكأن مجيئه على حسب إرادته وطوع مشيئته .

(والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) أى أن الله وعدكم على لسان نبيكم ، وبما أودعه فى الفطر السليمة من حب الخير والرغبة فى البر ــ مغفرة لكثير من خطاياكم ، وخلفاً فى الدنيا من جاه عريض وصيت حسن بين الناس ومال أزيد مما أنفق ، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » . وروى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان ، يقول أحدهما : « اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفاً » ومعنى الدعاء للمنفق بالخلف أن يسهل له أسباب الرزق ، ويرفع شأنه عند الناس ، والبخيل محروم من مثل هذا . ومعنى الدعاء على الممسك بالتلف أن يذهب ماله حيث لا يفيده .

(والله واسع عليم) أى أن الله واسع الرحمة والفضل ، فيحقق ما وعدكم به من المغفرة وإخلاف ما تنفقون ، وهو عليم بما تنفقون ، فلا يضيع أجركم ، بل يجازيكم أحسن الجزاء .

(يؤتى الحكمة من يشاء) أى أنه تعالى يعطى الحكمة والعلم النافع المصرف للإرادة لمن يشاء من عباده ، فيميز به الحقائق من الأوهام ، ويسهل عليه التفرقة بين الوسواس والإلهام .

وآلة الحكمة العقل المستقل بالحكم فى إدراك الأشياء بأدلتها ، وفهم الأمور

على حقيقتها ـ ومن أوتى ذلك عرف الفرق بين وعد الرحمن ووعد الشيطان ، وعض على الأول بالنواجذ وطرح الثانى وراءه ظهريا .

وقد فسر حبر الأمة عبد الله بن عباس الحكمة بالفقه فى القرآن أى معرفة ما فيه من الهدى والأحكام بأسراره وحكمه ، ومن فقه ما ورد فى الإنفاق وفوائده وآدابه من الآيات ـ لايكون وعد الشيطان له الفقر وأمره إياه بالبخل مانعا له من البذل والإنفاق .

والآية الكريمة رافعة شأن الحكمة بأوسع ما لها من المعانى ، وهادية إلى استعمال العقل فى أشرف ما خلق له .

(ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيراً) أى ومن يوفقه الله لهذا النوع النافع من العلم ويرشده إلى هداية العقل وتوجيهه الوجهة الصحيحة ـ فقد هدى إلى خيرى الدنيا والآخرة ، فهو يسخر القوى التى خلقها الله له من سمع وبصر وشعور ووجدان فى النافع من الأشياء ، ويعدها لتنفيذ ما يرغب فيه ، ثم بعدئذ يفوض الأمر إلى بارئه الذى فطره وسواه ، ومنه مبدؤه وإليه منتهاه ، وبهذا لايستسلم لوساوس الشيطان ، ولا يقضّ مضجعه ما يجده من مكدرات الحياة وآلامها ، ولا ما تسوقه إليه من محنها وأرزائها اعتقادا منه أن كل شىء بقضاء الله وقدره ، وبهذا يستريح باله ، وتهدأ ثائرته ، ويجد فى قلبه بردا وسلاماً لمزعجات الليالى والأيام .

(وما يذكر إلا أولو الألباب) أى لايتعظ بالعلم ويتأثر به ، ويجعل الإرادة مصرفة له ، خاضعة لمشيئته ، إلا ذوو العقول السليمة ، والنفوس التى تغوص فى بحر الحقائق ، وتستخرج منها ما هو نافع فى هذه الحياة ، وبه سعادتها ، وتجعله سلماً ترقى به فى معارج الفلاح لتصل به إلى خير العقبى ـ حشرنا الله فى زمرة أولئك .

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠)

شرح المفردات

النذر فى اللغة العزم على التزام شىء خاص فعلا أو تركا ، وفى الشرع التزام طاعة تقربا إلى الله تعالى ، والظلم وضع الشىء فى غير موضعه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الله تعالى حكم النفقة والبذل فى سبيل الله ـ عمم الحكم هنا فى كل نفقة ، سواء أكانت فى طاعة أم فى معصية ، وبين أن الله عليم بها ومجاز عليها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فعلينا أن نختار لأنفسنا أفضل ما نحب أن يعلمه ربنا عنا .

الإيضاح

(وما أنفقتم من نفقة) فى خير أو شر ، صادرة عن إخلاص أو عن رياء ، أتبعت بمنّ أو أذى أو لم تتبع بذلك ، سرا كانت أو علانية .

(أو نذرتم من نذر) فى طاعة أو فى معصية فهو قسمان :

(١) نذر قربة وبر وهو ما قصد به التزام الطاعة قربة لله تعالى كأن ينذر بذل مقدار معين من المال ، أو صلاة نافلة ، كقوله إن شفى الله مريضى فلله على أن أتصدق بكذا .

(٢) نذر لجاج وغضب وهو مايقصد به حث النفس على شىء أو منعها عنه ، كقولك إن كلمت فلاناً فعلىّ كذا .

واتفق الأئمة على وجوب الوفاء بالأول ، وهو مخير فى الثانى بين الوفاء بما التزمه وكفارة يمين .

وكل هذا إن كان النذر فى طاعة ، لأنه لايتقرب إلى الله إلا بالطاعة ، فإن نذر فعل معصية حرم عليه فعله ، فقد أخرج النسائى عن عمران بن الحصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النذر نذران ، فما كان من نذر فى طاعة الله تعالى فذلك لله تعالى ، وفيه الوفاء ، وما كان من نذر فى معصية الله تعالى فذلك للشيطان، ولا وفاء فيه ، ويكفره ما كفر اليمين » .

ومن نذر مباحا فعله ، لأن فسخ العزائم من ضعف الإرادة ، ومن ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم من نذرت أن تضرب بالدف وتغنى يوم قدومه بالوفاء .

(فإن الله يعلمه) ويجازى عليه ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهذا ترغيب وترهيب ، ووعد ووعيد .

(وما للظالمين من أنصار) أى وما للذين ظلموا أنفسهم ولم يزكوها من رذيلة البخل ، أو من رذيلة المن والأذى ، وظلموا الفقراء والمساكين بمنع ما أوجبه الله لهم وظلموا الأمة بترك الإنفاق فى مصالحها العامة ـ من أنصار لهم ينصرونهم يوم الجزاء ، فيدفعون عنهم بجاههم أو بمالهم ، وهـذا كقوله : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ » .

وفى هذا عبرة أيما عبرة لأولئك الباخلين بمالهم من المسلمين على المصالح العامة التى فيها خير للأمة ، وفيها سعادتها وعزها ، فالمال هو قطب الرحى ، وعليه تدور مصالح الأمم فى هذا العصر عصر المال ، ومن ثم تدهورت الأمم الإسلامية وصارت فى أخريات الأمم مدنية ورقياً وحضارة وتقدماً ، وفشا الجهل بين أفرادها ، وأصبحت فى فقر مدقع ، وقد كان فى مكنتهم أن ينشلوها من وهدتها ، ويرفعوها من الحضيض الذى وصلت إليه ببذل شىء من المال الذى يعود عليهم وعلى أمتهم بالخير العميم والفضل الكبير ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن الله يعلم ما تنفقون ويجازيكم عليه إن خيراً وإن شرا بيّن هنا سبيل إعطاء الصدقات ، وما يتبع فى ذلك من السر والعلانية ، وأيهما الأفضل .

الإيضاح

(إن تبدوا الصدقات فنعما هى) أى إن تظهروا الصدقات فنعم عملا إظهارها ، لما فيه من الأسوة الحسنة ، فيقتدى بالمتصدق كثير من الناس ، ولأن الصدقة من شعائر الإسلام التى لو أخفيت لتوهم منعها .

(وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) أى وإن تعطوها الفقراء خفية فذلك أفضل لما فى ذلك من البعد عن شبهة الرياء ، ولما دلت عليه الآثار والأحاديث ، أخرج أحمد عن أبى أمامة أن أبا ذرّ قال يا رسول الله : أى الصدقة أفضل ؟ قال : صدقة سر إلى فقير أو جهد من مقل ثم قرأ الآية . وروى الطبرانى مرفوعا « إن صدقة السر تطفئ غضب الرب » وروى البخارى : أن من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم القيامة إذ لا ظل إلا ظله « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : صدقة السر فى التطوع تفضل على علانيتها سبعين ضعفا ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمس وعشرين ضعفا ، وهكذا الحكم فى جميع الفرائض والتطوع .

وقال أكثر العلماء : إن أفضلية السر على العلانية إنما هى فى التطوع

لا فى الفريضة ، فإن إظهارها أفضل لإظهار شعيرة من شعائر الدين ، وقوة الدين بإظهار شعائره ، ولما فى ذلك من القدوة الحسنة . ولأن احتمال الرياء بعيد فى أداء الفرائض ، بل قالوا أيضا : إن الإظهار أفضل لمن يرجو اقتداء الناس به فى صدقته ، ولو كانت تطوعا .

والمُخْلِص فى صدقته لا يعسر عليه حين الصدقة فى المصالح العامة ـ أن يجمع بين إخفاء الصدقة الذى يسلم به من منازعة الرياء ، وبين إبدائها الذى يكون مدعاة للأسوة والاقتداء ، بأن يرسل حوالة مالية لجمعية خيرية ولا يذكر لها اسمه أو يذكره لرئيسها أو أمين صندوقها فحسب ، وقد جرت عادة الجمعيات أن تشيد بمثل هذه الصدقة بلسان أعضائها أو بلسان الجرائد والمجلات ونحوها ، وذلك أوسع طرق الشهرة وأبعدها مدى فى عصرنا .

وقد فهم من قوله (الفقراء) ولم يقل فقراءكم أعنى المسلمين ـ أن صدقة التطوع تعطى للمسلم والكافر والبر والفاجر ، لأن الله كتب الرحمة والإحسان فى كل شىء فقد ورد فى الصحيحين « فى كل ذى كبد حرّى أجر » أى فى جميع الأحياء ، وتمنع الزكاة التى هى أحد أركان الإسلام عن الكافر ، ومثلها زكاة الفطر .

كما فهموا من التصريح به أن الإخفاء مظنة الالتباس والاشتباه ، إذ ربما يدعى الغنى الفقر ويقدم على قبول الصدقة سراً ولا يفعل ذلك عند الناس ، فعلينا أن نتحرى ونعطى الفقراء حقا لا مدعى الفقر .

(ويكفر عنكم من سيئاتكم) أى ويمحو عنكم بعض ذنوبكم ، لأن الصدقة لا تكفر جميع الذنوب .

(والله بما تعملون خبير) أى فما تفعلونه فى صدقاتكم من الإسرار والإعلان ، فالله خبير به ، عليم بأمره ، ومجازيكم عليه ، وفى هذا ترغيب فى إعطاء الصدقات سراً .

وقد روى أنه لما نزل قوله (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ) الآية قالوا يا رسول الله : أصدقة السر أفضل أم صدقة العلانية ؟ فنزلت الآية (إن تبدوا الصدقات ..) إلى آخرها .

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

شرح المفردات

الهدى ضربان : هدى التوفيق إلى طريق الخير والسعادة ، وهو على الله تعالى ، وهدى الدلالة والإرشاد إلى الخير وهو على النبى صلى الله عليه وسلم ، وابتغاء وجه الله طلب مرضاته ، أحصروا منعوا وحبسوا فى طاعته لغزو أو تعلم علم ، ضربا فى الأرض أى سيراً فيها للكسب والتجارة ، والتعفف إظهار العفة وهى ترك الطلب ومنع النفس مما تريد ، والسيما العلامة التى يعرف بها الشىء ، وإلحافا أى إلحاحا وهو أن يلازم السائل المسئول حتى يعطيه .

المعنى الجملى

بعد أن أرشد فى الآية السابقة إلى إيتاء الصدقات للفقراء عامة مسلمين وغيرهم ، بين هنا أنه لاينبغى التحرج من إعطاء الفقير غير المسلم الصدقة لكفره ، لأن الصدقة لسد خَلَّته ولا دخل لها بإيمانه ، إذ من شأن المؤمن أن يكون خيره عاما ، وأن يسبق سائر الناس بالفضل والجود .

أخرج ابن أبى حاتم وغيره عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا ألا نتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية .

وأخرج ابن جرير وغيره أن ناساً من الأنصار لهم صهر وقرابة من المشركين ، كانوا يتقون أن يتصدقوا عليهم ، ويريدونهم أن يسلموا فنزلت الآية .

وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن جبير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تصدَّقُوا إلا على أهل دينكم » فأنزل الله تعالى (ليس عليك هداهم) الآية .

الإيضاح

(ليس عليك هداهم) أى لايجب عليك أن تجعل الناس مهديين ، إن أنت إلا بشير ونذير ، وما عليك إلا الإرشاد والحث على الفضائل والنهى عن الرذائل كالمن والأذى وإنفاق الخبيث .

(ولكن الله يهدى من يشاء) أى إن أمر الناس فى الاهتداء مفوض إلى ربهم ، بما وضعه لسير عقولهم وقلوبهم من السنن ، فهو الذى يوفقهم إلى النظر الصحيح الذى يكون من ثمرته العمل الموصل إلى سعادتهم .

(وما تنفقوا من خير فلأنفسكم) أى وما تنفقوا من خير فنفعه عائد إليكم فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فلأنه يكف شر الفقراء ويدفع عنكم أذاهم ، فإن الفقراء إذا ضاقت بهم الحال وحزبهم الأمر تألبوا على الأغنياء وسلبوهم ونهبوا أموالهم وآذوهم على قدر ما يستطيعون ، ثم سرى شرهم إلى غيرهم ، فتختل نظم المجتمع ، ويفقد الأمن فى الأمة .

وأما فى الآخرة فلأن ثوابه لكم ، ونفعه الدينى راجع إليكم لا للفقراء ، فلا تمنعوا الإنفاق على فقراء المشركين .

(وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) أى إنكم لا تنفقون لأجل جاه ولا مكانة

عند المنفق عليه ، و إنما تنفقون لوجه الله ، فلا فرق بين فقير وفقير إذا كان مستحقاً يتقرب بإزالة ضرورته إلى الرزاق الكريم الذى لم يحرم أحداً من رزقه لأجل عقيدته ، وهذا كقوله : « كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » .

(وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) أى يوف إليكم فى الآخرة لا تنقصون منه شيئاً ، فأنتم على استفادتكم من الإنفاق فى رقىّ أنفسكم ، وتثبيتها فى مقامات الإيمان والإحسان ، و إرادة وجه الله وابتغاء مرضاته ـ لا يضيع عليكم ما تنفقون ، بل توفونه ولا تظلمون منه شيئاً .

وفى هذا إرشاد من الله لعباده أن يكملوا أنفسهم ، و يبتغوا أن يراهم الله كملة يعملون الحسن لأنه حسن تتحقق به حكمته ، وتقوم به سنته فى صلاح البشر .

ثم بين أحق الناس بالصدقة فقال :

(للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا) أى اجعلوا ما تنفقون للذين ذكر الله صفاتهم الخمس التى هى من أجلّ الأوصاف قدراً .

(١) الإحصار فى سبيل الله ، والمراد به حبس النفس للجهاد أو العمل فى مرضاة الله ، إذ هم لو اشتغلوا بالكسب لتعطلت المصلحة العامة التى أحصروا فيها ، وحبسوا أنفسهم لها ، وتجب نفقتهم فى بيت المال ، ومنه الإحصار لتعلم الفنون العسكرية فى العصر الحديث ، فإن حبس الشخص نفسه فى الأعمال المشروعة التى تقوم بها المصالح العامة كالجهاد وطلب العلم ، وكان يستطيع الكسب فى أوقات فراغه لم يحل له الأخذ من الصدقة .

(٢) العجز عن الكسب والضرب فى الأرض للتجارة ونحوها بسبب المرض أو الخوف من العدو ، وهذا هو المقصود بقوله : (لا يستطيعون ضربا فى الأرض) .

(٣) التعفف والمبالغة فى التنزه عن الطمع مما فى أيدى الناس ، فإذا رآهم

الجاهل بحقيقة حالهم ظنهم أغنياء ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله : (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) .

(٤) أن لهم سيما خاصة تترك معرفتها إلى فراسة المؤمن الذى يتحرى بالإنفاق أهل الاستحقاق ، إذ صاحب الحاجة لا يخفى على المتفرس ، مهما تستر وتعفف ، ولا يختص ذلك بخشوع وتواضع ، ولا برثاثة فى الثياب ، فرب سائل يأتيك خاشع الطرف والصوت ، رث الثياب ، تعرف من سيماه أنه غنى وهو يسأل الناس تكثراً ، وكم رجل يقابلك بطلاقة وجه ، وحسن بِزَّة فتحكم عليه فى لحن قوله ، وأمارات وجهه أنه فقير عزيز النفس ، وهذا ما أشار إليه بقوله : (تعرفهم بسيماهم) .

(٥) ألا يسألوا الناس شيئاً مما فى أيديهم سؤال إلحاح كما هو شأن الشحاذين وأهل الكُدْية ، وقد يكون المعنى ـ أنهم لا يسألون أحداً شيئاً لا سؤال إلحاف ولا سؤال رفق واستعطاف .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس المسكين الذى يطوف على الناس ، تردّه اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفطن له فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس » .

والسؤال محرم لغير ضرورة ، روى أبو داود والترمذى من حديث عبد الله ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مِرَّة سَوِىّ » والمرة بكسر الميم القوة ، والسوى هو السليم الأعضاء ، والمراد به القادر على الكسب .

وروى أحمد وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم ، قالوا يا رسول الله وما يغنيه ؟ قال : ما يغديه أو يعشيه » .

وروى أحمد وابن ماجه عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً ، فليستقل منه أو ليستكثر » .

وروى أحمد والبخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس ، خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه » .

فمن يُعلم أنه يسأل لنفسه تكثراً كالشحاذين الذين جعلوا السؤال حرفة وهم قادرون على العمل ـ لايعطى شيئاً ، فقد رأى عمر رضى الله عنه سائلا يحمل جرابا فأمر أن ينظر فيه ، فإذا هو خبز ، فأمر أن يؤخذ منه ويلقى إلى إبل الصدقة .

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى أهل الصُّفَّة وهم أربعمائة من فقراء المهاجرين أرصدوا أنفسهم لحفظ القرآن الكريم ، والجهاد فى سبيل الله ، ولم يكن لأكثرهم مأوى ، لذلك كانوا يقيمون فى صُفَّة المسجد (موضع منه مُظَلّ) وقد هاجروا بدينهم وتركوا أموالهم ، فحيل بينهم وبينها ، فهم محصورون فى سبيل الله بهذه الهجرة ، ومحصورون بحبس أنفسهم على حفظ القرآن .

وقد كان حفظه حينئذ من أفضل العبادات على الإطلاق ، لأنهم ما كانوا يحفظونه إلا للفهم والاهتداء والعمل به ، وحفظ الدين بحفظه ، وكانوا يحفظون بيان النبى صلى الله عليه وسلم له بسنته القولية وسنته العملية ، وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوما على أصحاب الصفة ، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال : « أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه راضياً بما فيه فإنه من رفقائى » .

ولا يحل لأهل التكايا ومشايخ الطرق أن يأكلوا أموال الناس ، لأنهم لم ينقطعوا لتعلم علم ولا غزو فى سبيل الله ، بل قصارى أمر الأولين أن يأكلوا الصدقات والأوقاف ليعبدوا الله فى هذه التكايا ، فهى لهم كالأديار للنصارى وهم فيها كالرهبان ، وإن كان بعضهم قد يتزوج .

وكذلك مشايخ الطرق الذين ينزلون بجماعتهم بلدا بعد آخر ، ويكلفون من يستضيفونه الذبائح والشيء الكثير من الطعام ، ثم لا يخرجون إلا مثقلين بالمال والهدايا ، بل قد يسلبون وينهبون باسم الدين وفى معرض الكرامات ، فهؤلاء الأوغاد يشبهون أنفسهم بأهل الصفة ، ويزعمون أن لأكلهم أموال الناس بالباطل ـ أصلا فى الكتاب والسنة «كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً».

(وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم) فلا يخفى عليه حسن النية والإخلاص له فى العمل ، ولا تحرى النفع به وإيثاؤه أحق الناس به ، فهو يجازى عليه على حسب هذا ، ولا يخفى ما فى هذا من الترغيب فى الإنفاق ، ولا سيما على مثل هؤلاء الذين تقدم ذكرهم .

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)

المعنى الجملى

بعد أن رغب الله فى الآيات السالفة فى الإنفاق ، وبين فوائده للمنفقين والمنفق عليهم ، وللأمة التى يتعاون أفرادها ، ويكفل أقوياؤها ضعفاءها ، وأغنياؤها فقراءها ، ويقوم فيها القادرون بالمصالح العامة التى تجعل الأمة عزيزة الجانب محوطة بالكرامة فى أعين الأمم الأخرى ، كما بين آداب النفقة والمستحقين لها ، وأحق الناس بها إلى نحو من هذا .

بين هنا فضيلة الإنفاق فى جميع الأوقات والأحوال ومضاعفة الأجر على ذلك .

الإيضاح

المعنى — إن الذين ينفقون أموالهم فى جميع الأزمنة وفى سائر الأحوال ، ولا يحجمون عن البذل إذا لاح لهم وجه الحاجة إلى ذلك ، لهم ثوابهم عند ربهم

فى خزائن فضله ، ولا خوف عليهم حين يخاف الباخلون من تبعة بخلهم بالمال وحبسه حين الحاجة إلى بذله فى سبيل الله ، ولاهم يحزنون على ما فاتهم من صالح العمل الذى يرجون به ثواب الله .

ذاك أن نفوسهم قد سمت و بلغت حدا من الكمال لم يبق لسلطان المال معه موضع فى قلوبهم ، وأصبحت مرضاته الشغل الشاغل لهم ، فلا يستريح لهم بال إلا إذا سدوا خلة محتاج ، أو آسوا جراح مكلوم ، أو أشبعوا بطن جائع ، أو جهزوا جيشا يسدون به ثغرة فتحها عدو ، وهؤلاء هم المؤمنون حقا الذين يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا .

وإنما قدم الليل على النهار ، والسر على العلانية ، للإيماء إلى تفضيل صدقة السر على صدقة العلانية ، وجمع بين السر والعلانية للإيماء إلى أن لكل منهما موضعا تقتضيه المصلحة ، قد يفضل فيه سواه ، إذ الأوقات والأحوال لا تقصد لذاتها .

وقد روى أن الآية نزلت فى أبى بكر الصديق إذ أنفق أربعين ألف دينار ، عشرة بالليل وعشرة بالنهار ، وعشرة بالسر وعشرة بالعلانية .

وأخرج ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس أنها نزلت فى على كرم الله وجهه كانت له أربعة دراهم ، فأنفق بالليل درهما ، وبالنهار درهما ، وسرا درهما ، وعلانية درهما ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما حملك على هذا ؟ قال : حملنى أن أستوجب على الله الذى وعدنى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إن ذلك لك » .

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ

وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

شرح المفردات

يأكلون أى يأخذون و يتصرفون فيه بسائر أنواع التصرفات ، والربا لغة الزيادة يقال ربا الشيء يربو إذا زاد ، ومنه الرابية لما علا من الأرض فزاد على ما حوله ، والخبط الضرب على غير اتساق ، يقال ناقة خبوط إذا وطئت الناس وضربت الأرض بقوائمها ، و يقال للرجل يتصرف فى الأمور على غير هدى : هو يخبط خبط عشواء [العشواء الناقة الضعيفة البصر] والمسّ الجنون ، يقال مُسَّ الرجل فهو ممسوس إذا جن ، والموعظة العظة والزجر ، والمحق نقص الشيء حالا بعد حال كمحاق القمر ، ويربى يزيد و يضاعف ، لا يحب أى لا يرتضى ، والكفار المقيم على الكفر المعتاد له ، والأثيم المنهمك فى ارتكاب الآثام ، اتقوا الله أى قوا أنفسكم عقابه ، وذروا أى اتركوا ، فأذنوا أى فاعلموا ، بحرب من الله أى بغضب منه ، وحرب من رسوله بمعاملتكم معاملة البغاة وقتالكم بالفعل فى عصره ، واعتباركم أعداء له فى كل عصر ، لا تظلمون أى لا تفعلون

الظلم بغرمائكم بأخذ الزيادة ، ولا تظلمون بنقص شيء من رأس المال ، العسر الإعسار ويكون بفقد المال أو كساد المتاع ، والنظرة الانتظار ، والميسرة اليسار والسعة .

المعنى الجملى

كان الكلام قبل هذا فى آيات الصدقة ، والمتصدق يعطى المال من غير عوض ابتغاء وجه الله ـ وهنا ذكر الكلام على الربا لأن المرابى يأخذ المال بلا عوض يقابله .

وقبل أن نفسر الآيات الكريمة نشرح المقصود بكلمة الربا فى الإسلام ونذكر ما كان معروفا منه عصر التنزيل ، وفيم يكون ؟ حتى تتفهمه حق الفهم ، ثم نذكر بعدئذ أسرار النهى عنه فى الإسلام .

الربا ضربان : ربا النسيئة ، وربا الفضل .

فالأول يكون بإقراض قدر معين من المال لزمن محدود كسنة أو شهر مع اشتراط الزيادة فى نظير امتداد الأجل ، وهو المستعمل الآن فى المصارف المالية ، وهو الذى نص القرآن الكريم على تحريمه ، وكان متعارفا فى الجاهلية وقت التنزيل ، قال ابن جرير : إن الرجل كان يكون له على الرجل مال إلى أجل ، فإذا حلّ الأجل طلبه من صاحبه ، فيقول الذى عليه المال : أخر عنى دَينك وأزيدك على مالك ، فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافا مضاعفة ، فنهاهم الله عز وجل فى إسلامهم عنه اهـ .

والتعامل بهذا النوع من الكبائر ، وقد ورد فى الحديث «لعن الله آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده» .

والثانى يكون فى بيع الشيء بنظيره مع زيادة أحد العوضين على الآخر كأن يبيعه إردبا من القمح الهندى بثلاث عشرة كيلة من القمح البلدى ، أو أقة عنب مصرى بأقة وربع من عنب أزمير ، أو قنطاراً من فحم انجلترا بقنطار ونصف من فحم إيطاليا وهكذا الحكم فى جميع المكيلات والموزونات والنقدين (الذهب والفضة) لما جاء فى الخبر من قوله صلى الله عليه وسلم « لا تبيعوا الذهب بالذهب والورق بالورق

(الفضة) والبُرّ بالبُرّ والتمر بالتمر والشعير بالشعير والملح بالملح إلا سواء بسواء عيناً بعين يداً بيد » .

والتعامل به محرم أيضاً لكنه أقل إثماً من سابقه .

أسرار تحريم الربا

زعم كثير من المسلمين الذين ذهبوا إلى بلاد الغرب ، بلاد المدنية والحضارة ، ونهلوا من مناهل العلم هناك ، أن تحريم الربا فى الإسلام هو العقبة الكئود فى مجاراة الأمم الإسلامية للبلاد الغربية فى الثروة التى هى مناط العزة والقوة فى العصر الحديث ويحتجون بأن المسلمين ما منوا بالفقر وذهبت أموالهم إلى أيدى الأجانب إلا بتحريم الربا ، فإنهم لاحتياجهم إلى الأموال يأخذونها من الأجانب بالربا الفاحش ، ومن كان منهم غنيا لايعطى ماله بالربا ، فمال الفقير يذهب ، ومال الغنى لاينمو ، وهم يريدون بذلك أن الدين قد وقف عقبة كأداء فى أهم مسألة عمرانية اجتماعية .

وهذه حجة أوهى من بيت العنكبوت ، وأوهام يزينها لهم الشيطان لم يمحصوها حق التمحيص ، فإن المسلمين فى هذا العصر لا يحكّمون الدين فى شىء من أعمالهم ومكاسبهم ، إذ لو حكموه لما استعانوا بالربا ، ولما جعلوا أموالهم غنائم لغيرهم ، فإن كانوا تركوا الربا لأجل الدين ، فهل هم تركوا الصناعة والتجارة لأجل الدين ؟ فالأمم جميعاً قد سبقتنا إلى إتقان ذلك ، فلماذا لانتقن سائر المكاسب لنعوض على أنفسنا ما فاتنا من الكسب المحرم ، وديننا يدعونا إلى السبق فى إتقان كل شىء .

وفى الحق أن المسلمين قد نبذوا الدين وراءهم ظهريا ، فلم يبق منه إلا تقاليد وعادات ورثوها من آبائهم وأجدادهم ، فالدين لم يكن عائقاً لهم عن الرقى ، بل هو خير الأديان فى الدعوة إلى العمل والحث على الكسب كما قال تعالى : « فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ » وقال : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ » .

فالأمة الإسلامية ما ارتفعت إلا بالدين ، وما سقطت بعد ما ارتفعت إلا بترك الدين ، مع الجهل بالسبب الذى أفضى بها إلى ذلك ، إلى أن صارت تجعل علة الرقى سبباً فى الانحطاط ، فلو اتبعت حكوماتنا وأفرادنا أوامر الدين وتركت التعامل بالربا مع الأجانب لما ضاعت ثروتنا ، ولا ذهب ملكنا ، وكان الدين وحده هو العاصم لنا.

فالربا مسألة اجتماعية كبيرة اتفقت فى حكمها الأديان الثلاثة : اليهودية والنصرانية والإسلام ، لكن اختلف فيها أهل الأديان . فاليهود كانوا يرابون غيرهم ، والنصارى يرابى بعضهم بعضاً ويرابون سائر الناس ، والمسلمون حفظوا أنفسهم من هذه الرذيلة رَدَحا طويلا من الدهر ، ثم قلدوا غيرهم فيها ، ثم انتشرت بينهم فى العصر الحديث فى أكثر الأقطار ، والسر فى هذا أنهم قلدوا حكامهم فى هذه السبيل ، بل كثيرا ما ألزم الحكام الرعية بالتعامل بالربا أداء للضرائب التى يفرضونها عليهم .

فالأديان لم تستطع أن تقاوم ميل الجماهير إلى أكل الربا حتى صار كأنه ضرورة يضطرون إليها .

ويمكن أن نلخص الأسباب التى لأجلها حرم الدين الربا فيما يلى :

(١) أنه يمنع الناس من الاشتغال بالمكاسب الصحيحة كأنواع الحرف والصناعات ، لأن رب المال إذا تمكن بعقد الربا من إنماء ماله خف عليه الكسب وسهلت لديه أسباب العيش ، فيألف الكسل ، ويمقت العمل ، ويتجه همه إلى أخذ أموال الناس بالباطل ، وتزداد شراهته فى الاستيلاء على كل ما يستطيع أن يبتزه من أموالهم ، فلا يرأف بفقير ، ولا يشفق على بائس ، ولا يرحم مسكيناً ، وقد جرت عادة المرابين بأن يزداد طمعهم حين الأزمات كقحط فى البلاد ، أو حروب تشتد فيها الحاجة إلى الأقوات ، فيضطر الفقراء إلى الاستدانة من هؤلاء الطغاة الذين يستنزفون دماءهم ، ويستأثرون بالبقية الباقية من أموالهم .

(٢) أنه يؤدى إلى العداوة والبغضاء والمشاحنات والخصومات ، إذ هو ينزع

عاطفة التراحم من القلوب ، ويضيع المروءة ويذهب المعروف بين الناس ، ويحل القسوة محل الرحمة ، حتى إن الفقير ليموت جوعا ولا يجد من يجود عليه ليسد رمقه ، ومن جرّاء هـذا منيت البلاد ذات الحضارة التى تعاملت بالربا بمشاكل اجتماعية ، فكثيراً ما تألب العمال وغيرهم على أصحاب الأموال ، وأضربوا عن العمل الفَيْنَة بعد الفينة ، والمرة بعد المرة .

ومنذ فشا الربا فى البلاد المصرية ضعفت فيها عاطفة التعاون والتراحم ، وأصبح المرء لايثق بأقرب الناس إليه ، ولا يقرضه إلا بمستند وشهود ، بعد أن كان المقرض يستوثق من المقترض ولو أجنبيا عنه بألا يحدث أحدا بأنه اقترض منه ، وما كان المقرض فى حاجة فى وصول حقه إليه إلى مطالبة بَلْهَ محاكم ومقاضاة .

(٣) أن الله جعل طريق التعامل بين الناس فى معايشهم أن يستفيد كل منهم من الآخر فى نظير عوض ، لـكن فى الربا أخذ مال بلا عوض ، وهذا نوع من الظلم لأن المال حقا وحرمة ، فلا يجوز لغير مالكه الاستيلاء عليه قهرا بطريق غير مشروع. قال صلى الله عليه وسلم « حرمة مال الإنسان كحرمة دمه » .

ولا ينبغى اعتبار القدر الزائد بسبب الربا عوضاً من بقاء رأس المال فى يد المدين زمناً لو كان فيه فى يد الدائن لاستفاد منه بطريق وسائل الـكسب كتجارة وزراعة ونحوها ، لأن هذا ربما لا يحصل ، وإن حصل فربما لا تتحقق الاستفادة ، أما أخذ الزائد فى الربا فمتيقن ، ولا يجوز مقابلة المحتمل الحصول بالمؤكد المتيقن .

(٤) أن عاقبته الخراب والدمار ، فـكثيرا ما رأينا ناساً ذهبت أموالهم ، وخربت بيوتهم بأكلهم الربا ، وفى حديث ابن مسعود عند أحمد وابن ماجه وابن جرير « إن الربا وإن أكثر فعاقبته تصير إلى قُلّ » .

والسر فى هذا أن المقترضين يسهل عليهم أخذ المال من غير بدل حاضر ويزين لهم الشيطان إنفاقه فى وجوه من الـكماليات التى كان يمكن الاستغناء عنها ، ويغريهم بالمزيد من الاستدانة ، ولا يزال يزداد ثقل الدين على كواهلهم حتى يستغرق أموالهم ،

فإذا حلَّ الأجل لم يستطيعوا الوفاء وطلبوا التأجيل ، ولا يزالون يمطلون ويؤجلون والدَّين يزيد يوما بعد يوم حتى يستولى الدائنون قسراً على كل ما يملكون ، فيصبحون فقراء معدمين ، صدق الله (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) .

الإيضاح

(الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) يقال لمن يتصرف فى شىء من مال غيره ، أكله وهضمه أى أنه تصرف فيه تمام التصرف ، فلا سبيل إلى رده كما لا سبيل إلى رد المأكول .

والمراد أن حال المرابين فى الدنيا كالمتخبطين فى أعمالهم بسبب الصرع والجنون إذ أنهم لما فتنوا بحب المال ، واستعبدتهم زينته ، ضريت نفوسهم بجمعه ، وجعلوه مقصودا لذاته ، وتركوا لأجله جميع موارد الكسب الأخرى ، فخرجت نفوسهم عن حد الاعتدال الذى عليه أكثر الناس ، وترى أكثر ذلك ظاهرا فى حركاتهم وتقلبهم فى أعمالهم ، فالمولعون بأعمال (البورصة) والمغرمون بالقمار يزداد فيهم النشاط والانهماك فى الأعمال ، وترى فيهم خفة تعقبها حركات غير منتظمة ، والعرب تقول لمن يسرع ويأتى بحركات مختلفة على غير نظام : قد جنَّ .

وجمهور المفسرين على أن المراد بالقيام القيام من القبور حين البعث ، وأن الله جعل من علامة المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون كالمصروعين ، ورووا ذلك عن ابن عباس وابن مسعود .

وروى الطبرانى حديث عوف بن مالك مرفوعا : إياك والذنوب التى لا تغفر ، الغلول ـ الخيانة فى مغنم وغيره ـ فمن غلَّ شيئاً أتى به يوم القيامة ، والربا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط .

وتخبط الشيطان للإنسان من زعمات العرب ، إذ يزعمون أنه يخبط الإنسان فيصرع ، فورد القرآن على ما يعتقدون ، وكذلك يعتقدون أن الجنى يمس الإنسان

فيختلط عقله ، ويتولون رجل ممسوس أى مسه الجن ، ورجل مجنون : إذا ضربته الجن ، ولهم فى ذلك قصص وأخبار وعجائب ، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المحسوسات .

فجاءت الآية وفق ما يعتقدون ، ولا تفيد صحة هذا ولا نفيه ، كما جاء قوله تعالى فى وصف ثمر شجرة الزقوم التى تكون يوم القيامة فى النار « طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ » وما رأى أحد رءوس الشياطين ، لكنها جاءت على حسب ما يتخيلون ويزعمون .

(ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا) أى ذلك الأكل للربا مرتب على استحلالهم له وجعله كالبيع ، فكما يجوز أن يبيع الإنسان السلعة التى ثمنها عشرة دراهم نقدا بعشرين درهما بأجل ، يجوز أن يعطى المحتاج عشرة دراهم على أن يرد عليه بعد سنة عشرين درهما ، والسبب فى كل من الزيادتين واحد وهو الأجل .

تلك حجتهم وهم واهمون فيما قالوا ، فقياسهم فاسد ، ومن ثم قال الله : (وأحلّ الله البيع وحرم الربا) .

إذ فى البيع ما يقتضى حله ، وفى الربا من المفسدة ما يقتضى تحريمه ـ ذلك أن البيع يلاحظ فيه دائما انتفاع المشترى بالسلعة انتفاعا حقيقياً ، فمن يشترى قمحا فإنما يشتريه ليأكله أو ليبذره فى الأرض أو ليبيعه ، والثمن مقابل للمبيع مقابلة مرضية للبائع والمشترى باختيارهما ، أما الربا فهو إعطاء الدراهم والمثليات وأخذها مضاعفة فى وقت آخر ، فما يؤخذ من المدين زيادة فى رأس المال لا مقابل له من عين ولا عمل ، ولا يؤخذ بالرضا والاختيار ، بل بالكره والاضطرار .

(فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف) أى فمن بلغه تحريم الله للربا ونهيه عنه فتركه فورا بلا تراخ ولا تردد اتباعا لنهى الله ـ فله ما كان أخذه فيما سلف من الربا لا يكلف رده إلى من أخذه منهم ، ويكتفى منه بألا يأخذ ربا بعد ذلك .

(وأمره إلى الله) يحكم فيه بعدله ، ومن العدل ألا يؤاخذ بما أكل من الربا

قبل التحريم ، و بلوغه الموعظة من ربه ، وفى هذا إيماء إلى أن تلك الإباحة لما سلف رخصة للضرورة ، وترشد إلى أن رد ما أخذه من قبل النهى إلى أربابه من أفضل العزائم .

(ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى ومن عادوا إلى ما كانوا يأكلون من الربا المحرم بعد تحريمه فأولئك الذين لم يتعظوا بموعظة من ربهم ، وهو لا ينهاهم إلا عما يضرهم ، فهم أهل النار خالدين فيها .

والخلود هنا المكث الطويل ، وقد عبر به تغليظا كما جاء مثله فى آيات أخرى .

ويرى بعضهم أن الإقدام على كبائر الإثم والفواحش عمدا ـ إيثار لحب المال أواللذة به ، فلا يجتمع مع الإيمان الحق الذى يملأ النفوس خوفا ورهبة من عقاب الله بفعل ما نهى عنه ، وأما الإيمان الصورى فلا وزن له عند الله ، لأنه تعالى لا ينظر إلى الصور والأقوال ، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال كما يرشد إلى ذلك الحديث « لا يزنى الزانى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر وهو مؤمن » .

فالذى يرتكب الفواحش على هذه الطريقة يعد من الكافرين المستحلين ، و إن أنكر ذلك بلسانه ، فيكون خالدا مخلدا فى النار أبداً .

(يمحق الله الربا ويربى الصدقات) أى يذهب الله بركة الربا ويهلك المال الذى يدخل فيه ، فلا ينتفع به أحد من بعده ، ويضاعف ثواب الصدقات ، ويزيد المال الذى أخرجت منه .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من تصدق بعِدْل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله تعالى إلا طيبا ، فإن الله تعالى يقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبه كما يربى أحدكم فِلوَه حتى تكون مثل الجبل » .

وقال العلماء : المراد بالمحق ما يلاقى المرابى من عداوة المحتاجين ، وبغض المعوزين وقد تفضى هذه العداوة والبغضاء إلى مفاسد ومضار كالاعتداء على الأموال والأنفس والثمرات ، كما ظهر أثر ذلك فى الأمم التى فشا فيها الربا ، فقد قام الفقراء يعادون

الأغنياء ويتألبون عليهم حتى صارت هذه مسألة اجتماعية شائكة لديهم ، وكذلك ما يصابون به فى أنفسهم من الوساوس والأوهام ، يعرف ذلك من راقب عُبَّاد المال وبلا أخبارهم . فمنهم من شغله المال عن طعامه وشرابه ، بل عن أهله وولده ، حتى لقد يقصر فى حق نفسه تقصيراً يفضى إلى الخسران والذل والمهانة .

وقصارى ذلك ـ أن الربا يمحق ما يطلب الناس بزيادة المال من اللذة وبسطة العيش والجاه والمكانة ، ويصل بصاحبه إلى عكس هذه النتيجة ، من الهموم والأحزان والحب الشديد للمال ، ومقت الناس له ، وكراهتهم إياه ، وبذا لم يصل إلى ثمرة المال المقصودة فى هذه الحياة ، وهى أن يكون ناعم البال عزيزا شريفا عند الناس ، لكونه مصدر الخير لهم ، كما يكون محروما فى الآخرة من ثواب المال ، فهو حينئذ قد فقد الانتفاع بماله هذا الضرب من الانتفاع ، فكان كمن محق ماله وهلك .

وقد قضت سنة الله فى المتصدق أن يكون انتفاعه بماله أكبر من ماله ، وقد تقدم إيضاح هذا .

(والله لا يحب كل كفار أثيم) الكفار هنا هو المتمادى فى كفر ما أنعم الله به عليه من المال ، لأنه لا ينفق منه فى سبيله ، ولا يواسى به المحتاجين من عباده ، والأثيم هو المنهمك فى ارتكاب الآثام ، فهو قد جعل المال آلة لجذب ما فى أيدى الناس إلى يده فاستغل إعسارهم ، وأخذ أقواتهم ، وامتص دماءهم .

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى إن الذين صدقوا بما جاءهم من ربهم من الأوامر والنواهى : وعملوا ما تصلح به نفوسهم كمواساة المحتاجين ، والرحمة بالبائسين وإنظار المعسرين ـ وهذا من مستتبعات الإيمان الحقيق المقرون بالإذعان ـ وأقاموا الصلاة التى تذكر المؤمن بالله ، فتزيد إيمانه ، وحبه لربه ومراقبته له ، فتسهل عليه طاعته فى كل شىء ، وآتوا الزكاة التى تطهر النفوس من رذيلة البخل وتمرنها على أعمال البر ـ وخص هذين بالذكر مع شمول الأعمال الصالحة لهما لأنهما أعظم أركان العبادات

النفسية والبدنية ـ لهم ثواب مدخَّر عند ربهم يوم الجزاء . ولا يحزنون على مافات ، ولا يخافون مما هو آت .

وفى هذا تعريض بآكلى الربا وأنهم لو كانوا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات لكفوا عن ذلك .

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين) أى يأيها المؤمنون المصدقون الله فيما به أمر وعنه نهى ، قوا أنفسكم عقابه باتباع أوامره ونواهيه واتركوا ما بقى لكم من الربا عند الناس إن كنتم مؤمنين حقا بكل ما جاء به الدين من أوامر ونواه .

وقد عهد فى كلام العرب أن يقال : إن كنت متصفا بما تقول فافعل كذا ويذكرون أمرا من شأنه أن يكون أثرا لهذا الوصف، وفى هذا إيماء إلى أن من لم يترك ما بقى من الربا بعد أن نهى الله عنه ، وتوعد عليه ، لايعدّ من أهل الإيمان الذى له السلطان على الإرادة ، فهو مخلد فى النار ، وإيمانه ببعض ماجاء فى الدين ، وكفره ببعضه بعدم الإذعان له والعمل به ، لايعد إيمانا حقا وإن أقر بلسانه ، إذ مثل هذا لايعتد به كما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يشرب الخمر وهو مؤمن » .

(فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) أى فإن لم تتركوا ما بقى من الربا كما أمرتكم ، فاعلموا أنكم محاربون لله ورسوله ، إذ خرجتم عن شريعته ولم تخضعوا لحكمها ، ونبذتم ما جاء به رسوله عنه .

وفى هذا رمز إلى أن عدم الخضوع لأوامر الشريعة خروج منها وامتهان لأحكامها

وحرب الله غضبه وانتقامه ممن يأكل الربا ، والمشاهدة أكبر دليل على صدق هذا فكثيرا ما رأينا آكلى الربا أصبحوا بعد الغنى يتكففون الناس .

وحرب رسوله مقاومته لهم فى زمنه ، واعتبارهم خارجين من الإسلام يحل قتالهم ، وعداوته لهم بعد وفاته إذا لم يخلفه أحد يقيم شريعته .

(وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون) أى وإن رجعتم عن الربا خضوعا لأوامر الدين ، فلكم رءوس الأموال لا تأخذون عليها شيئا من الغرماء ، ولا تنقصون منها شيئا ، بل تأخذونها كاملة .

روى ابن جرير أن هاتين الآيتين نزلتا فى العباس بن عبد المطلب ورجل من بنى المغيرة كانا شريكين فى الجاهلية ، سلّفا فى الربا إلى أناس من ثقيف من بنى عمرو وهم بنو عمرو بن عمير ، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة فى الربا فأنزل الله (وذروا ما بقى من الربا) .

وأخرج عن ابن جريج قال : كانت ثقيف قد صالحت النبى صلى الله عليه وسلم على أن مالهم من ربا على الناس وما لهم من ربا عليهم فهو موضوع ، فلما كان فتح مكة استعمل عتاب بن أسيد عليها ، وكان بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الربا من المغيرة ، وكان بنو المغيرة يربون لهم فى الجاهلية ، فجاء الإسلام ولهم عليهم مال كبير فأتاهم بنو عمرو يطلبون رباهم ، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم فى الإسلام ، ورفعوا ذلك إلى عَتّاب بن أُسَيْد ، فكتب عتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عتاب وقال : « إن رضوا وإلا فآذنهم بحرب » .

(وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) أى وإن وجد مدين معسر ممن لكم عليهم دين فأنظروه وأمهلوه إلى حين اليسار حتى يتمكن من أداء الدين ، روى أن بنى المغيرة قالوا لبنى عمرو بن عمير فى القصة السالفة : نحن اليوم أهل عسرة فأخرونا إلى أن تدرك الثمرة فأبوا فنزلت الآية فى قصتهم كالآيتين قبلها .

(وأن تصدقوا خير لكم) أصل تصدقوا تتصدقوا أى وتصدقكم على المعسرين من المدينين بإبرائهم من الدين كُلاًّ أو بعضاً ، خير لكم من إنظارهم ، وأكثر ثوابا عند الله منه .

وفى هذا حث على الصدقة ، والسماح للمدين المعسر ، لما فيه من التعاطف

والتراحم و برّ الناس بعضهم ببعض ، وذلك مما يوجد حسن الصلة بين الأفراد ويتم ارتباط الأمة وتضامن بنيها فى المصالح العامة ، كما يرشد إلى ذلك الحديث :

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

(إن كنتم تعلمون) أى إن كنتم تعلمون أنه خير لكم فاعملوا وفق ما تعلمون ، وسامحوا إخوانكم ، وأشعروا قلوبهم الشفقة والحدَب عليهم .

وفى الآية دليل على وجوب إنظار المعسر إلى حين اليسار ، وأفضل منه الإبراء والتصدق عليه بقيمة الدين .

ثم ختم سبحانه آيات الربا بتلك العظة البالغة التى إذا وعاها المؤمن هونت عليه السماح بالمال والنفس وكل ما يملك مما طلعت عليه الشمس فقال :

(واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) أى واحذروا ذلك اليوم العظيم الذى تتفرغون فيه من شواغلكم الجسدية الدنيوية التى كانت تصرفكم عن ربكم فى هذه الحياة إذ كنتم ترون أن لكم حاجات وضرورات يجب عليكم أن تستعدوا لها بتكثير المال وجمعه .

والخلاصة — أنكم إذا تذكرتم ذلك اليوم وفكرتم فيما أعد الله لعباده من الجزاء على قدر أعمالهم ، خفف ذلك من غلوائكم واطمأنت نفوسكم إلى ملاقاة ربكم ، فتجدون برداً وسلاما لطيب هذه المعاملة .

(ثم توفى كل نفس ما كسبت) أى ثم يجازى كل امرئ بما عمل من خير أو شر .

(وهم لا يظلمون) أى لا ينقصون من ثوابهم ولا يزادون على عقابهم .

عن ابن عباس أن هذه الآية آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال : ضعها فى رأس المائتين والثمانين من البقرة ، وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها أحدا وعشرين يوما ، وقيل أحدا وثمانين يوما .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ، أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ، ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

شرح المفردات

تداينتم داين بعضكم بعضاً ، إلى أجل مسمى أى موعد محدود بالأيام والشهور والسنة ونحوها مما يفيد العلم ، لا بالحصاد وقدوم الحاج مما فيه جهالة ، بالعدل

أى بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين ، ولا يأب أى لا يمتنع ، كما علمه الله أى على الطريق التى علمه الله إياها من كتابة الوثائق ، وليملل أى وليلق على الكاتب ما يكتبه ، والإملال والإملاء بمعنى ، يقال أملّ على الكاتب وأملى عليه ، ولا يبخس أى ولا ينقص ، سفيهاً أى ضعيف الرأى لا يحسن التصرف فى المال لضعف عقله ، أو ضعيفاً أى صبيا أو شيخا هرما ، أولا يستطيع أن يمل أى بأن كان جاهلا أو ألكن أو أخرس ، واستشهدوا شهيدين أى اطلبوا أن يشهد رجلان ، ترضون أى ترضون دينهم وعدالتهم ، أن تضل أى تخطىء لعدم ضبطها وقلة عنايتها ، ولا تسأموا أى لا تملوا ولا تضجروا ، أقسط أى أعدل ، وأقوم أى وأعون على إقامتها على وجهها ، وأدنى أى أقرب ، ألا ترتابوا أى إلى انتفاء الريب فى جنس الدَّين وقدره وأجله ، تديرونها أى تتعاطونها بالتعامل يداً بيد ، الجناح الإثم والذنب ، ولا يضار أى لا يفعل الضرر بالمتعاملين بالامتناع عن الكتابة أو الشهادة أو بالتحريف أو الزيادة أو النقص ، فسوق أى خروج عن الطاعة ، والرهان واحدها رهن بمعنى مرهون .

المعنى الجملى

بعد أن رغب الله فى الصدقات والإنفاق فى سبيل الله ، لما فيهما من الرحمة ، ثم أعقب ذلك بالنهى عن الربا لما فيه من القسوة ـ ذكر هنا ما يحفظ المال الحلال بكتابة الدَّين والإشهاد عليه وعلى غيره من المعاوضات ، وأخذ الرهن إذا لم يتيسر الاستيثاق بالكتابة والإشهاد عليه ، إذ من يؤمر بالإنفاق والصدقة ، وينهى عن ترك الربا لابد له من كسب ينمى ماله ويحفظه من الضياع ، ليتسنى له القيام بما طلب الله وحث عليه .

وفى هذا دليل على أن المال ليس مبغوضاً عند الله ، ولا مذموما فى دين الله ، كيف وقد شرع الله لنا الكسب الحلال وهدانا إلى حفظ المال وعدم تضييعه ،

وإلى اختيار الطرق النافعة فى إنفاقه باستعمال عقولنا ، وتوجيه إرادتنا إلى العمل بخير ما نعرفه منها .

وكأن هذه الآية جاءت احتراسا مما عسى أن يقع فى الأذهان من الكلام السابق إذ ربما فهم من المبالغة فى الترغيب فى الإنفاق فى سبيل الله ، والتشديد فى تحريم الربا ، أن جمع المال وحفظه مذموم على الإطلاق كما يظهر من نصوص بعض الأديان السابقة وكأنه يقول : إنا لا نأمركم بإضاعة المال ولا بترك تثميره ، وإنما نأمركم أن تكسبوه من الطريق الحلال ، وتنفقوا منه فى وجوه البر والخير ، يرشد إلى هذا أن الله نهانا عن إيتاء المال للسفهاء خوفا من ضياعه بقوله : « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا » أى تقوم بها مصالحكم ومعايشكم .

روى أحمد والطبرانى حديث عمرو بن العاص « نعمّ المال الصالح للمرء الصالح »

وإنما يذم المال إذا استعبد صاحبه ، فبخل فى إنفاقه ، واشتط فى جمعه من الحلال والحرام ، روى البخارى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تعِس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم » .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) طالب الله إلى المؤمنين حفظاً لديونهم التى تشمل القرض والسلم (ما فيه المبيع مؤجل والثمن عاجل) ويسميه العامة (الغاروقة) وبيع الأعيان إلى أجل معين ـ أن يكتبوها حتى إذا حل الأجل سهل عليهم أن يطلبوها ويقاضوا المدين للحصول عليها .

وقد بين الله تعالى كيفية الكتابة ، ومن يتولاها فقال :

(وليكتب بينكم كاتب بالعدل) أى وليكن الكاتب الذى يكتب لكم الديون عادلا يساوى بين المتعاملين ، لا يميل إلى أحدهما فيزيده على حقه ، ولا يميل عن الآخر فيبخسه من حقه .

(ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله) بعد أن شرط الله فى الكاتب العدالة شرط فيه العلم بالأحكام والفقه فى كتابة الدين ، إذ الكتابة لا تكون ضماناً تاما إلا إذا كان الكاتب عالماً بالأحكام الشرعية والشروط المرعية عرفاً وقانوناً ، وكان عادلا حسن السيرة ، لا غرض له إلا بيان الحق بلا محاباة .

وقدم صفة العدالة على صفة العلم ، لأن العادل يسهل عليه أن يتعلم ما ينبغى أن يعلمه لكتابة الوثائق ، ولكن من كان عالماً غير عادل ، فالعلم بهذا وحده لا يهديه للعدالة ، وقلما رأينا فساداً من عدل ناقص العلم ، ولكن أكثر الفساد من العلماء الذين فقدوا ملكة العدالة .

وفى ذكر هذه الشروط فى الكاتب إرشاد من الله للمسلمين أن يكون فيهم هذا الصنف من الكتاب القادرين على كتابة العقود الرسمية ، كما أن فى ذكرها إيماء إلى أنه ينبغى أن يكون الكاتب غير المتعاقدين وإن كانا يحسنان الكتابة خيفة أن يغالط أحدهما الآخر أو يغشه .

وفى التعبير بقوله (ولا يأب) رمز إلى أن العالم بما فيه مصلحة الناس ، إذا دعى إلى القيام بعمل وجب عليه أن يلبى الدعوة ، ومن ثم أمره الله بذلك أمراً صريحاً فقال (فليكتب) وهذا الأمر بعد النهى عن الإباء كالتأكيد ، لأن الموضوع هام لتعلقه بحفظ الحقوق ، ولا سيما لدى الأميين الذين خوطبوا به أولا .

(وليملل الذى عليه الحق) أى وليلْقِ على الكاتب ما يكتبه المدين ليكون إملاله حجة عليه تحفظها الكتابة .

(وليتق الله ربه) أى وليتق الذى عليه الحق الله فى الإملال ، بأن يذكر ما عليه كاملا ، وفى هذا مبالغة فى الحث على التقوى بالتذكير بجلائل النعم والترهيب من العقاب .

ثم نهاه أن يبخس من الحق شيئاً تأكيداً لهذا فقال :

(ولا يبخس منه شيئاً) إذ الإنسان مجبول على دفع الضرر عنه ، وعرضة

للطمع ، وربما يستخفه طمعه إلى نقص شيء من الحق ، أو الإبهام فى الإقرار الذى يملى على الكاتب تمهيداً للمجادلة والمماطلة .

(فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل) أى فإن كان المدين ضعيف العقل أو صبيا أو هرما أو جاهلا أو ألكن أو أخرس ، فعلى من يتولى أموره ويقوم مقامه من قيم أو وكيل أو مترجم أن يمل بالعدل بلا زيادة ولا نقص .

(واستشهدوا شهيدين من رجالكم) أى اطلبوا أن يشهد على المداينة رجلان من المؤمنين ممن حضرها ، وفى قوله من رجالكم دليل على اشتراط الإسلام فى الشهادة ، كما اشترطوا العدالة بدليل قوله : « وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ » .

قال ابن القيم فى إعلام الموقعين : البينة فى الشرع أعمّ من الشهادة ، فكل مايتبين به الحق كالقرائن القطعية يسمى بينة ، فلا مانع أن تدخل شهادة غير المسلم فى البينة بذلك المعنى إذا تبين للحاكم الحق بها .

(فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان) أى فإن لم يكونا أى من تستشهدونهما رجلين ، فليستشهد رجل وامرأتان .

(ممن ترضون من الشهداء) أى ممن ترضون دينهم وعدالتهم من الشهداء ، وإنما جيء بهذا الوصف ، لضعف شهادة النساء وقلة ثقة الناس بها ، ومن ثم فوض الأمر فيها إلى رضى المستشهدين .

(أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) أى حذر أن تضل إحداهما وتخطىء لعدم ضبطها وقلة عنايتها ، فتذكر كل منهما الأخرى بما كان فتكون شهادتها متممة لشهادة الأخرى .

وخلاصة هذا — أنه لما كان كل منهما عرضة للخطأ والضلال أى الضياع وعدم الاهتداء إلى ما كان قد وقع بالضبط ، احتيج إلى إقامة الثنتين مقام الرجل الواحد ، حتى إذا تركت إحداهما شيئا من الشهادة ، كأن نسيته أو ضل عنها تذكرها الأخرى

وتتم شهادتها ، وعلى القاضى أن يسأل إحداهما بحضور الأخرى ، و يعتد بجزء الشهادة من إحداهما و بباقيها من الأخرى ، وكثير من القضاة لايعملون بهذا جهلا منهم بما ينبغى أن يتبع فى نحو هذا .

أما الرجلان فيفرق بينهما ، فإن قصر أحدهما أو نسى شيئا مما يبين الحق لايعتد بشهادته ، وتكون شهادة الآخر وحده غير كافية ولا يعول عليها إن بينت الحق .

وهـذه العبارة لبيان سر تشريع الحكم فى اشتراط العدد فى النساء ، إذ قد جرت العادة أن المرأة لا تشتغل بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات ، فتكون ذاكرتها ضعيفة فيها ، بخلاف الأمور المنزلية فإن ذاكرتها فيها أقوى من ذاكرة الرجل فقد جبل الإنسان على أن يقوى تذكره لما يهتم به و يُعْنى بشأنه ، واشتغال النساء فى هذا العصر بالمسائل المالية لا يغير هذا الحكم ، لأن الأحكام إنما تكون للأعم الأكثر ، وعدد هؤلاء قليل فى كل أمة وجيل .

(ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا) أى لا ينبغى للشهود أن يمتنعوا عن تحمل الشهادة ليؤدوها حين الحاجة .

روى الربيع أن الآية نزلت حين كان الرجل يطوف فى القوم الكثير فيدعوهم إلى الشهادة ، فلا يتبعه أحد منهم ، وقيل إن المراد لا يأبوا عن تحمل الشهادة ولا أدائها ، فالامتناع عن كل منهما محرم ، وهو فرض كفاية لا يجب على من دعى إليه إلا إذا لم يوجد غيره يقوم مقامه .

(ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله) أى لا تتكاسلوا عن كتابة الدين ، قليلا كان أو كثيرا ، مبينين بذلك أجله المسمى ، وفى هذا دليل على أن الكتابة من الأدلة التى تعتبر عند استيفاء شروطها ، وعلى أنها واجبة فى القليل والكثير ، وعلى أنه لا ينبغى التهاون فى الحقوق حتى لايضيع شىء منها ، وهذا قاعدة من قواعدة الاقتصاد فى العصر الحديث ، فكل المعاملات والمعاوضات لها دفاتر خاصة تذكر فيها مواقيتها ، والمحاكم تجعلها أدلة فى الإثبات .

ثم يبين الحكمة فى الأوامر والنواهى المتقدمة بعد ذكرها ، وتلك سنة القرآن يذكر الأحكام ثم يذكر أسرارها وفوائدها لتكون أثبت فى النفس ، وأثلج للقلب قال :

(ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا) أى ذلك الحكم أحرى بإقامة العدل بين المتعاملين ، وأعون على إقامة الشهادة على وجهها ، وفى هذا إيماء إلى أن للشاهد أن يطلب وثيقة العقد المكتوب ليتذكر ما كان من الأحوال حين كتابتها وإملائها .

وقوله: أدنى ألا ترتابوا ؛ أى أنه أقرب إلى نفى ارتياب بعضكم من بعض ، إذ هذا الاحتياط فى كتابة الحقوق والإشهاد عليها ومراعاة العدل من المتعاملين والكتّاب والشهداء يدفع الارتياب وما ينشأ منه من مفاسد كالعداوات والمخاصمات ـ وهذه ميزة ثالثة تؤكد الأخذ بها والاعتماد عليها وجعلها مذكرة للشهود .

(إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها) أى أن الكتابة مطلوبة إلا أن توجد تجارة حاضرة تدار بين المتعاملين بالتعاطى بأن يأخذ المشترى المبيع والبائع الثمن ، فلا حرج حينئذ فى ترك الكتابة ولا إثم فى ذلك إذ لا يترتب عليه شىء من التنازع والتخاصم .

وفى هذا إشارة إلى ما يجب على المرء فى ضبط أمواله وإحصاء ما يرد إليه وما يصدر عنه ، وهذا منتهى الرقى المدنى ، هدى إليه الإسلام قبل أن يعرفه الغربيون ذوو الحضارة والمدنية بعدة قرون ، ولم يجعل ذلك أمرا محتوما لما فيه من الشقة على غير الأمم ذات التقدم والحضارة .

(وأشهدوا إذا تبايعتم) أى وأشهدوا فى التبايع فى التجارة الحاضرة ، إذ قد يحصل التنازع والخلاف فى بعض العقود الحاضرة بعد تمام العقد ، فاكتفى بالإشهاد .

أما الديون المؤجلة فربما يقع التنازع فيها بعد موت الشهود ، إذ هى مما يطول زمنها ، ومن ثم وجبت كتابتها .

(ولا يضارّ كاتب ولا شهيد) أصل يضارِر (بكسر الراء) وهذا نهى للكاتب أن يضرّ أحد المتعاملين بالتحريف أو التغيير بزيادة أو نقص ، وللشاهدين أن يحرفا أو يتركا الإجابة عما يطلب منهما ، ويؤيده قوله بعد (وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم) إذ التحريف فى الكتابة والشهادة فسق وإثم .

(وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم) أى وإن تفعلوا ما نهيتم عنه من الضرار ، فإن هذا الفعل خروج من طاعة الله إلى معصيته .

(واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم) أى واتقوا الله فى جميع ما أمركم به ونهاكم عنه ، وهو سبحانه يعلمكم ما فيه صلاح حالكم فى الدارين وحفظ أموالكم ، ولولا هديه لكم لم تعلموا شيئاً ، وهو العليم بكل شىء ، فإذا شرع شيئاً من الأحكام فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد وجلب المصالح لمن اتبع شرعه وهداه .

وجاء ختم الآية بهذه الموعظة الحسنة ليكون معينا على الامتثال لجميع ما تضمنته من الأحكام ـ وهذه أطول آية فى القرآن وأبسطها شرحا وأبينها أحكاما ، وفيها مبالغة فى التوصية بحفظ المال وصونه من الضياع ، ليتمكن المرء من الإنفاق فى سبيل الله ، والإعراض عما يوجب سخطه من التعامل بالربا وغيره ، ومن المواظبة على تقواه التى هى الوسيلة لكل فوز وفلاح .

(وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة) أى وإن كنتم مسافرين ولم تجدوا كاتباً يحسن كتابة المداينة ، أو لم تجدوا صحيفة ولا دواة ولا قرطاساً ، فاستوثقوا برهن تقبضونه .

وذِكْرُ السفر وعدم وجود الكاتب الذى يكتب وثيقة الدين ، بيان للعذر الذى رخص ترك الكتابة ووضع الرهن محله فى التوثق لصاحب الدين ، وإلا فقد رهن النبى صلى الله عليه وسلم درعه فى المدينة ليهودى بعشرين صاعا من شعير أخذها لأهله رواه البخارى ومسلم .

وفى الآية إشارة إلى أنه ينبغى أن يكون عدم وجود الكاتب مقيداً بحال السفر ، لا فى مواطن الإقامة ، لأن الكتابة مفروضة على المؤمنين ، والإيمان لايتحقق إلا بالإذعان والعمل ، ولا سيما فى فريضة أكدت كالكتابة .

(فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤدّ الذى ائتمن أمانته وليتق الله ربه) أى فإن أمن بعض الدائنين بعض المدينين لحسن ظنه به وثقته بأنه لايجحد الحق ولا ينكره ، فليؤد المدين دينه وليكن عند ظن الدائن به ، وليتق الله ربه فلا يتخون من الأمانة شيئاً ، فقد يوسوس له الشيطان بأن لاحجة عليه ولا شهيد ، فالله خير الشاهدين وهو أولى أن يتقى ، وسمى الدين أمانة لائتمان المدين عليه بترك الارتهان به .

والآيات السالفة الدالة على وجوب الكتابة والإشهاد وأخذ الرهن هى الأصل والعزيمة للاحتياط فى الديون ـ وهذه الآية رخصة أباحها الله لنا حين الضرورة كالأوقات التى لايوجد فيها كاتب ولا شهيد ، فإذا احتاج امرؤ إلى الاقتراض من أخيه فى مثل هذه الحال ، فالله لايحرم عليه قضاء حاجته وسد خَلَّته إذا هو ائتمنه .

ثم أكد وجوب الشهاد الذى استفيد من قوله : (ولا يأب الشهداء إذا مادعوا) بقوله :

(ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) أى ولا تمتنعوا عن أداء الشهادة إذا طلب إليكم ذلك ، ومن يفعل ذلك يكن مجترحا للإثم مرتكباً للذنب .

وسر هذا التأكيد أن الكتّاب والشهود هم الذين يعينون الناس على حفظ أموالهم ، فعليهم ألا يقصروا فى ذلك ، كما على أرباب الأموال ألا يضاروهم ، فإن المصلحة مشتركة بين الجميع .

ونسب الإثم إلى القلب ، لأنه هو الذى يعى الوقائع ويدركها ويشهد بها ، فهو آلة الشعور والعقل ، فكتمان الشهادة عبارة عن حبس ذلك فيه ، والإثم كما يكون بعمل الجوارح وحركات الأعضاء يكون بعمل القلب واللب كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً »

فأسند إلى الفؤاد أى القلب أو النفس أعمالا خاصة به ، كما أسند الباقى إلى السمع والبصر .

ومن آثام القلب سوء القصد وفساد النية والحسد .

والآية ترشد إلى أن الإنسان يعاقب على ترك المعروف كما يعاقب على فعل المنكر ، لأن الترك فى الشهادة بكتمانها فعل للنفس تترتب عليه آثار تضر غيرها .

وكل من الكتابة والاستشهاد شرع للاستيثاق بين الدائن والمدين ، والكتابة أقوى من الشهادة ، وهى عون لها ، فالدائن يستوثق بماله فيأمن من إنكاره كله أو بعضه ، والمدين يستوثق بما عليه ، فلا يخاف أن يزاد فيه ، والشاهد يستوثق بشهادته ، فإذا شك أو نسى رجع إلى الكتاب فتذكر واطمأن قلبه كما قال : « ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا » .

وللكتابة الفضل الأكبر فى حفظ الحقوق حين موت الشهيدين أو أحدهما ، لأنه لا حافظ لها حينئذ إلا هى ، فهى التى يرجع إليها ويعمل بها .

لِلّهِ مَافِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَإِنْ تُبْدُوا مَافِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

المعنى الجملى

جاءت هذه الآية متممة لقوله : « وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » ودليل عليه ، لأن كل شىء هو له ، وهو خالقه فهو العليم به ، ونحو الآية قوله : «أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ» .

وإذا كان كل شىء فى السموات والأرض له ، فهو يعاقب من كتم الشهادة ، لأنه قد أتى إثماً وارتكب جرما ، ثم زاد هذا المعنى توكيداً بما بعده من قوله :

(وإن تبدو ما فى أنفسكم) إلى آخر الآية ، إذ كتمان الشهادة داخل فى عموم ما فى النفس .

الإيضاح

(لله ما فى السموات وما فى الأرض) أى كل ما فيهما خلقاً وملكا وتصرفا له لا شركة لغيره فى شىء منهما ، فلا يعبد فيهما سواه ، ولا يعصى فيما يأمر وينهى ، وله أن يُلزِم من شاء بما شاء من التكاليف .

(وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) أى وإن تظهروا ما فى قلوبكم من السوء والعزم عليه بالقول أو بالفعل ، أو تكتموه عن الناس ولا تظهروه ، يجازكم الله به يوم القيامة ، لأن الإبداء والإخفاء سيان عند الله ؛ لأنه « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » فالمعوّل عليه فى مرضاته تزكية النفوس وتطهير السرائر لا لَوْكُ اللسان وحركات الأبدان .

والمراد بقوله : ما فى أنفسكم الأشياء التى لها قرار فى أنفسكم ، وعنها تصدر أعمالكم كالحقد والحسد ونحوهما ـ ذاك أن الخواطر والهواجس قد تأتى بغير إرادة الإنسان ولا يكون لها أثر فى نفسه ولا يُنْتَج منها فعل يكون مترتباً عليها ، لكنه إذا استرسل معها حسبت عليه عملا يجازى به ، لأنه مشى معها قُدُما باختياره ، وقد كان يستطيع مطاردتها وجهادها ، فالمظلوم يذكر ظالمه ، فيشتغل فكره فى دفع ظلمه والهرب من أذاه ، وربما استرسل مع خواطره إلى أن تجره إلى تدبير الحيل للإيقاع به ، ومقابلة ظالمه بما هو شر منه ، فيكون مؤاخذاً عليه أبداه أو أخفاه .

وصفة الحسد تبعث فى نفس الحاسد خواطر الانتقام من المحسود والسعى فى إزالة نعمته ، وهذه الخواطر مما يحاسب الحاسد عليها ، أبداها أو أخفاها ـ وهكذا يقال فى كل أعمال القلب التى أمرنا الشارع بجهادها ومقاومتها ، مما هو أثر لأخلاق وملكات وعزائم قوية تنشأ عنها أعمال هى آثار لها ، إذا انتفت الموانع وتركت المجاهدة .

أخرج أحمد ومسلم عن أبى هريرة قال : لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم (لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جثوا على الركب ، فقالوا أَىْ رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق ـ الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ـ وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم : سمعنا وعصينا ، بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما قرأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله فى إثرها « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ » الآية ، قال فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل « لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » إلى آخرها .

وقوله نسخها الله أى أزال ما أخافهم من الآية الأولى وحوله إلى وجه آخر .

وقد قال الصحابة ما قالوا لأنهم قد دخلوا فى الإسلام وكثير منهم تربوا فى حجر الجاهلية وانطبعت فى نفوسهم أخلاقها ، وأثرت فى قلوبهم عاداتها ، وكانوا يتطهرون منها بالتدريج بهدى الرسول ونور القرآن ، فلما نزلت هذه الآية خافوا أن يؤاخذوا على ما كان باقياً فى أنفسهم من العادات الأولى ، وكانوا يحاسبون أنفسهم لاعتقادهم النقص وخوفهم من الله عز وجل ، حتى أثر عن عمر بن الخطاب أنه كان يسأل حذيفة بن اليمان ، هل يجد فيه شيئاً من علامات النفاق ، فأخبرهم الله تعالى بأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، ولا يؤاخذها إلا على ما كلفها ، وهم مكلفون بتزكية أنفسهم ومجاهدتها بقدر الطاقة ، وطلب العفو عما لا طاقة لهم به .

وقد يكون بعضهم خاف أن تدخل الوسوسة والشبهة قبل التمكن من دفعها فيما تشمله الآية ، فكان ما بعدها مبيناً لغلطهم فى ذلك .

(فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشا) أى فهو يغفر بفضله لمن يشاء أن يغفر له ، ويعذب بعدله من يشاء أن يعذبه ، والله إنما يشاء ما فيه الرحمة والعدل ، ومن العدل

أن يجازى المسيء بقدر إساءته ، والمحسن على قدر إحسانه ، ومن الفضل أن يضاعف جزاء الحسنة عشرة أضعافها أو يزيد ، ولا يضاعف السيئة .

والذنب المغفور هو الذى يوفق الله صاحبه لعمل صالح يغلب أثره فى النفس ، وليس كما يزعم الجاهلون أن الأمور فوضى والكيل جزاف ، فيقيمون على الذنوب ويصرون عليها ويمنون أنفسهم بالمغفرة — اقرأ قوله تعالى فى دعاء الملائكة للمؤمنين « رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

ومحاسبة الله لعباده أن يريهم أعمالهم الظاهرة والباطنة ، ويسألهم لم فعلوها ؟ ثم إن شاء غفر وإن شاء عذب ، فمن لم تصل أعماله المنكرة إلى أن تكون ملكات له فالله يغفرها له ، ومن تكون كذلك فالله يعاقبه عليها ، وهو المختار يفعل ما يشاء .

ولا يخفى ما فى الآية من الإنذار والتخويف ، وليس فيها قطع بمغفرة ذنب وإن كان صغيراً ، ومن ثم أثر عن بعض الصوفية أنه قال : أبهمت الأمر علينا ، نرجو ونخاف ، فآمن خوفنا ، ولا تخيب رجاءنا .

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ،

رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَالاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

شرح المفردات

لا نفرق بين أحد من رسله أى أن الرسل فى الرسالة والتشريع سواء لا يفضل بعضهم بعضاً ، سمعنا أى سماع تدبر وفهم ، والتكليف الإلزام بما فيه كلفة ، والوسع ما تسعه قدرة الإنسان من غير حرج ولا عسر ، والاكتساب يفيد الجد فى العمل ، والمؤاخذة المعاقبة لأن من يراد عقابه يؤخذ بالقهر ، ما لا طاقة لنا به أى ما لا قدرة لنا عليه ويشق علينا فعله ، والإصر العبء الثقيل يأصر صاحبه ويحبسه مكانه ، إذ لا يطيق حمله لثقله ، والمراد به التكاليف الشاقة ، مولانا أى مالكنا ومتولى أمورنا .

المعنى الجملى

افتتح سبحانه هذه السورة ببيان أن القرآن لا ريب فيه ، وأنه هدى للمتقين ، وبين صفات هؤلاء ، وأصول الإيمان التى أخذوا بها ، ثم ذكر خبر الكافرين والمرتابين ، ثم أرشد فيها إلى كثير من الأحكام كالصيام والحج والطلاق ، وحاج الضالين من الأمم السالفة ولا سيما اليهود ، فإنه قد بلغ فى حجاجهم مبلغاً ليس بعده زيادة لمستزيد — وهنا اختتم السورة بالشهادة للرسول صلوات الله عليه وللمؤمنين ، ثم لقنهم من الدعاء ما يرضيه ، ثم ذكر تمام خضوعهم وإخباتهم إلى ربهم الذى رباهم وخلقهم فى أحسن تقويم ، وميزهم بالفطر السليمة والخلق الكامل ، وطهر نفوسهم وزكاها من الأدناس والأرجاس حتى وصلوا إلى طريق السعادة ، وفازوا بخيرى الدارين ، وهذا منتهى الكمال الإنسانى ، وغاية ما تصبو إليه نفوس البشر .

الإيضاح

(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون) أى صدق الرسول بما جاء به الوحى من العقائد والأحكام تصديق يقين واطمئنان ، وتخلق به كما قالت عائشة رضى الله عنها : كان خلقه القرآن ، وكذلك المؤمنون من أصحابه .

وقد كان من أثر هذا الإيمان أن زكت نفوسهم ، وطهرت قلوبهم ، وعلت همتهم ، فأتوا بالعجب العاجب من فتح البلاد والشعوب وسياستها سياسة عدل وحكمة مما شهد لهم به أعدى أعدائهم ، وسجله لهم التاريخ فى سجل الدول العظيمة الرقى والتقدم حين كان الناس فى ظلام دامس ، وحين كانت أرقى الأمم فى تلك العصور تسوس رعاياها بالخسف والعسف ، فأنقذها مما ترسف فيه من قيود الاستعباد وجعلها تتنفس فى جو من الحرية لم تر مثله — وكفى بالله شهيداً لهم .

(كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) أى كل منهم آمن بوجود الله ووحدانيته ، وتمام حكمته فى نظام خليقته ، وبوجود الملائكة وسفارتهم بين الله والرسل ، ينزلون بوحيه على قلوب أنبيائه ، أما البحث عن ذواتهم وصفاتهم وأعمالهم فمما لم يأذن به الله .

وآمن كل منهم إجمالا فيما أجمله القرآن وتفصيلا فيما فصله — بأن الله أنزل على رسله كتباً فيها هداية للبشر على حسب ما فصل فى قوله : « قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ » الآية .

(لا نفرق بين أحد من رسله) أى ويقولون إن الرسل فى الرسالة والتشريع سواء ، كثر قوم الرسول أو قلوا ، والتفضيل الذى جاء فى قوله تعالى : « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » إنما هو فى مزايا أخرى فوق الرسالة .

وفى هذا إشارة إلى فضيلة المؤمنين على غيرهم من أهل الكتاب الذين يفرقون بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض .

(وقالوا سمعنا وأطعنا) أى وقالوا بَلَّغنا الرسول فسمعنا القول سماع تدبر وفهم ، وأطعنا ما فيه من الأوامر والنواهى طاعة إذعان وانقياد ، وهذا مما يبعث النفس إلى العمل به إلا إذا عرض لها مانع يمنعها منه .

والمخلصون فى إيمانهم يحاسبون أنفسهم على ما يقع منهم من تقصير تأتى به العوارض الطارئة ، ويأبون إلا الكمال ، ومن ثم كان من شأنهم أن يقولوا :

(غفرانك ربنا وإليك المصير) أى استر لنا ذنوبنا بعدم الفضيحة عليها فى الدنيا وترك الجزاء عليها فى الآخرة ، أى نسألك ربنا المغفرة مما عساه يقع منا من التقصير الذى يعوقنا عن الرقى فى مراتب الكمال .

وإنما يكون ذلك بالتوبة ، وإتباع السيئة الحسنة ، وبهذا يمحى أثر الذنب من النفس فى الدنيا ، فترجع إلى الله فى الآخرة نقية زكية .

(لايكلف الله نفساً إلا وسعها) أى لايكلف الله عباده إلا ما يطيقون ، ويتيسر لهم فضلا منه ورحمة ، وهو كقوله : « يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » .

وهذا إخبار من الله بعد تلقيهم تكاليفه بالطاعة والقبول ، بآثار فضله ورحمته لهم ، إذ كلفهم ما يتسنى لهم فعله ، ولا يصعب عليهم عمله .

وفيه بشارة بغفران ما طلبوا غفرانه من التقصير ، وبتيسير ما ربما يفهم من الآية السالفة (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) من المشقة والتعسير .

(لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) أى لها خير ما كسبته لنفسها من قول أو فعل ، وعليها ضرّ ما جدّت فيه من شر ، وأضيف الاكتساب إلى الشر لبيان أن النفس مجبولة على فعل الخير ، وتفعل الشر بالتكلف والتأسى ، إذ الميل إلى الخير مما أودع فى طبع الإنسان ، ولا يحتاج إلى مشقة فى فعله ، بل يجد لذة فى عمله ، كما يشعر بالميل إلى عبادة الله ، لأن شكر المنعم مغروس فى طبعه .

وأما الشر فإنه يعرض للنفس لأسباب ليست من طبيعتها ، ولا مقتضى فطرتها ، ولا يخفى عليها إذ ذاك أنها ممقوتة فى نظر الناس ، وأنها مهينة فى قرارة نفوسهم .

فالطفل ينشأ على الصدق حتى يسمع الكذب من الناس فيتعلمه وهو يشعر بقبحه ، وهكذا شأنه عند اجتراح كل شر ، فتراه يشعر بقبحه ، ويجد بين جوانحه وازعا يقول له : لا تفعل ، ويحاسبه بعد الفعل ويوبخه .

والخير كل ما فيه نفع نفسك ونفع الناس ، والعبارة الجامعة لذلك ، أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك كما ورد فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

والخلاصة — أن للنفس ثواب ما كسبت من الخير ، وعليها عقاب ما اجترحت من الشر .

وفى هذا ترغيب فى عمل الخير ، والمحافظة على أداء الواجبات الدينية ، فإن اختصاص نفع الفعل بفاعله من أقوى الدواعى إلى تحصيله ، وتحذيره من الإخلال به لأن مضرة ذلك تحيق به لا بغيره ، واقتصار مضرة الفعل بفاعله من أشد الزواجر عن مباشرته .

و بعد أن بين الله حال المؤمنين فى السمع والطاعة ، وطلبهم المغفرة مما يتهمون به نفوسهم من التقصير ، وذكر فضله على عباده فى عدم تكليفهم مالا يطيقون — علمهم ما يدعون به ربهم فقال :

(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) علمنا الله أن ندعوه بألا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا تفضلا منه ، و إحساناً علينا ، إذ كان ينبغى العناية والاحتياط والتذكر ، لعلنا نسلم من الخطأ والنسيان ، أو يقل وقوعهما منا ، فيكون ذنبنا جديراً بالعفو والمغفرة .

ذاك أن النسيان قد يكون من عدم العناية بالشىء ، وترك إجالة الفكر فيه ، يستقر فى النفس ، ومن ثم ينسى الإنسان ما لا يهمه و يحفظ مايهمه ، و يؤاخذ الناس

بعضهم بعضا بالنسيان ، ولا سيما نسيان الأدنى لما يأمره به الأعلى ، فإنه إن لم يفعل ما يأمره به نسيانا رماه بالإهمال والتقصير وآخذه على ذلك .

وكذلك الخطأ ينشأ من التساهل وعدم الاحتياط والتروى ، ومن ثم أوجبت الشريعة الضمان فى إتلاف الشىء خطأ ، فإذا رمى امرؤ صيدا فأخطأ وأصاب إنسانا فقتله أوخذ به فى الشريعة والقوانين الوضعية .

وبهذا تعلم أن المؤاخذة على النسيان والخطأ مما جاءت به الشريعة ، وجرى عليه العرف فى المعاملات والقوانين ، ولو لم يكن كل منهما مقصرا ما جاز هـذا وما حسن ، وكذلك يجوز أن يؤاخذ الله الناس فى الآخرة بما يأتونه من المنكر ناسين تحريمه أو واقعين فيه خطأ .

والخلاصة — أن المراد من الآية أن الخطأ والنسيان مما يرجى العفو عنهما إذا وقع الإنسان فيهما بعد بذل الجهد والتفكر والتذكر وأخذ الدين بقوة ، ثم لجأ إلى الدعاء الذى يقوى فى النفس خشية الله ورجاء فضله ، فيكون هذا الإقبال نورا تنقشع به ظلمة ذلك التقصير .

وما رواه ابن ماجه والبيهقى فى السنن عن ابن عباس مرفوعا « إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » فهو وعد من الله بالتجاوز عنها يوم القيامة رحمة منه وفضلا .

(ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا) أى ربنا لا تكلفنا ما يشق علينا فعله ، كما كلفت من قبلنا من الأمم التى بعثت فيها الرسل كبنى إسرائيل إذ كان يجب عليهم قطع موضع النجاسة من الثوب إذا تنجس ، وكانوا يدفعون ربع المال زكاة ، إلى نحو من ذلك .

وفى تعليمنا هـذا الدعاء بشارة بأنه لا يكلفنا ما يشق علينا كما صرح بذلك فى قوله : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وامتنان علينا وإعلام لنا بأنه

كان يجوز أن يحمل علينا الإصر ، فيجب علينا أن نشكره لذلك ، فنحن ندعوه استشعارا للنعمة والشكر عليها .

(ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) من العقوبات أو من البلايا والمحن ، ولا ما يشق علينا من الأحكام ، بل حملنا اليسير الذى يسهل علينا حمله والنهوض به ، حتى لا نستحق بمقتضى سنتك أن تحملنا مالا طاقة لنا به من عقوبة المفرطين فى دينهم .

(واعف عنا) أى امح آثار ذنوبنا فلا تعاقبنا عليها .

(وارحمنا) بتوفيقك إيانا للسير على سنتك التى جعلتها وسيلة لسعادة الدارين .

وهذه الجمل الثلاث نتائج لما قبلها من الجمل التى افتتحت بلفظ (ربنا) فاعف عنا مقابل لقوله (لا تؤاخذنا) ، واغفر لنا مقابل لقوله (ولا تحمل علينا إصرا) وارحمنا مقابل لقوله (ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) لأن من آثار عدم المؤاخذة بالنسيان والخطأ العفو ، ومن آثار عدم حمل الإصر عليهم المغفرة ، ومن آثار عدم تحميل مالا يطاق الرحمة .

(أنت مولانا) أى أنت مالكنا ومتولى أمورنا ، فأنت الذى منحتنا الهداية ، وأيدتنا بالتوفيق والعناية .

(فانصرنا على القوم الكافرين) بإقامة الحجة عليهم والغلبة حين قتالهم ، والأول أشد أثرا وأقوى فعلا ، فإنه نصر على الروح والعقل ، أما النصر بالسيف فهو نصر على الجسد فحسب .

وما علمنا الله هذا الدعاء لتلوكه ألسنتنا وتتحرك به شفاهنا فقط ، بل لندعوه مخلصين له لاجئين إليه بعد استعمال ما يصل إليه كسبنا من الأسباب والوسائل التى هى طريق الاستجابة ، فمن فعل ذلك فإن الله يستجيب دعاءه ، ومن لم يعرف من الدعاء إلا حركة اللسان ، مع مخالفة أحكام الشريعة ، وتجافى السنن التى سنها الله ، فهو بدعائه كالساخر من ربه ، فهو لا يستحق منه إلا المقت والخذلان .

ونحن الآن قد أعرضنا عن هدايته ، وتنكبنا سنته فى خليقته ، ثم طلبنا منه النصر بألسنتنا دون قلوبنا ، فلم يستجب لنا دعاء ، وكنا نحن الجانين على أنفسنا ، المستحقين لهذا الخذلان .

فإذا اتخذ المسلمون العُدَّة وقاموا ببذل الوسع فى استكمال الوسائل التى أرشد إليها الله تعالى ، وساروا على السنن التى هدى إليها البشر ، فإن الله يستجيب دعوتهم وينصرهم على أعدائهم ، فقد ورد فى الأثر : إن هذه الأمة لا تغلب من قلة ، وفقنا الله إلى العمل بسنته ، والسير وفق شريعته ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

خلاصة ما فى هذه السورة من أمهات الشريعة

(١) دعوة الناس جميعا إلى عبادة ربهم .
(٢) عدم اتخاذ أنداد له .
(٣) ذكر الوحى والرسالة ، والحجاج على ذلك بهذا الكتاب المنزل على عبده وتحدى الناس كافة بالإتيان بمثله .
(٤) ذكر أس الدين وهو توحيد الله .
(٥) إباحة الأكل من جميع الطيبات .
(٦) ذكر الأحكام العملية من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأحكام الصيام ، والحج والعمرة ، وأحكام القتال والقصاص .
(٧) الأمر بإنفاق المال فى سبيل الله .
(٨) تحريم الخمر والميسر .
(٩) معاملة اليتامى ومخالطتهم فى المعيشة .
(١٠) أحكام الزوجية من طلاق ورضاعة وعدة .
(١١) تحريم الربا والأمر بأخذ ما بقى منه .
(١٢) أحكام الدَّيْن من كتابة وإشهاد وشهادة وحكم النساء والرجال فى ذلك .

(١٣) وجوب أداء الأمانة .

(١٤) تحريم كتمان الشهادة .

(١٥) خاتمة ذلك كله الدعاء الذى طلب الينا أن ندعوه به .

وعلى الجملة فقد فصلت فيها الأحكام ، وضربت الأمثال ، وأقيمت الحجج ، ولم تشتمل سورة على مثل ما اشتملت عليه ، ومن ثم سميت فسطاط القرآن .

سـورة آل عمران

هذه السورة مدنية ، وعدد آياتها مائتان باتفاق العادّين .

ووجه اتصالها بما قبلها أمور :

(١) أن كلا منهما بدىء بذكر الكتاب وحال الناس فى الاهتداء به ـ فقد ذكر فى الأولى من آمن به ومن لم يؤمن به والمذبذبين بين ذلك ، وفى الثانية طائفة الزائغين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وطائفة الراسخين فى العلم الذين يؤمنون بمحكمه ومتشابهه ، ويقولون كل من عند ربنا .

(٢) أن فى الأولى تذكيرا بخلق آدم ، وفى الثانية تذكيرا بخلق عيسى ، وتشبيه الثانى بالأول فى أنه جرى على غير سنة سابقة فى الخلق .

(٣) أن فى كل منهما محاجة لأهل الكتاب ، لكن فى الأولى إسهاب فى محاجة اليهود واختصار فى محاجة النصارى ، وفى الثانية عكس هذا ، لأن النصارى متأخرون فى الوجود عن اليهود ، فليكن الحديث معهم تاليا فى المرتبة للحديث الأول .

(٤) أن فى آخر كل منهما دعاء ، إلا أن الدعاء فى الأولى ينحو نحو طلب النصر على جاحدى الدعوة ومحاربى أهلها ، ورفع التكليف بما لا يطاق ، وهذا